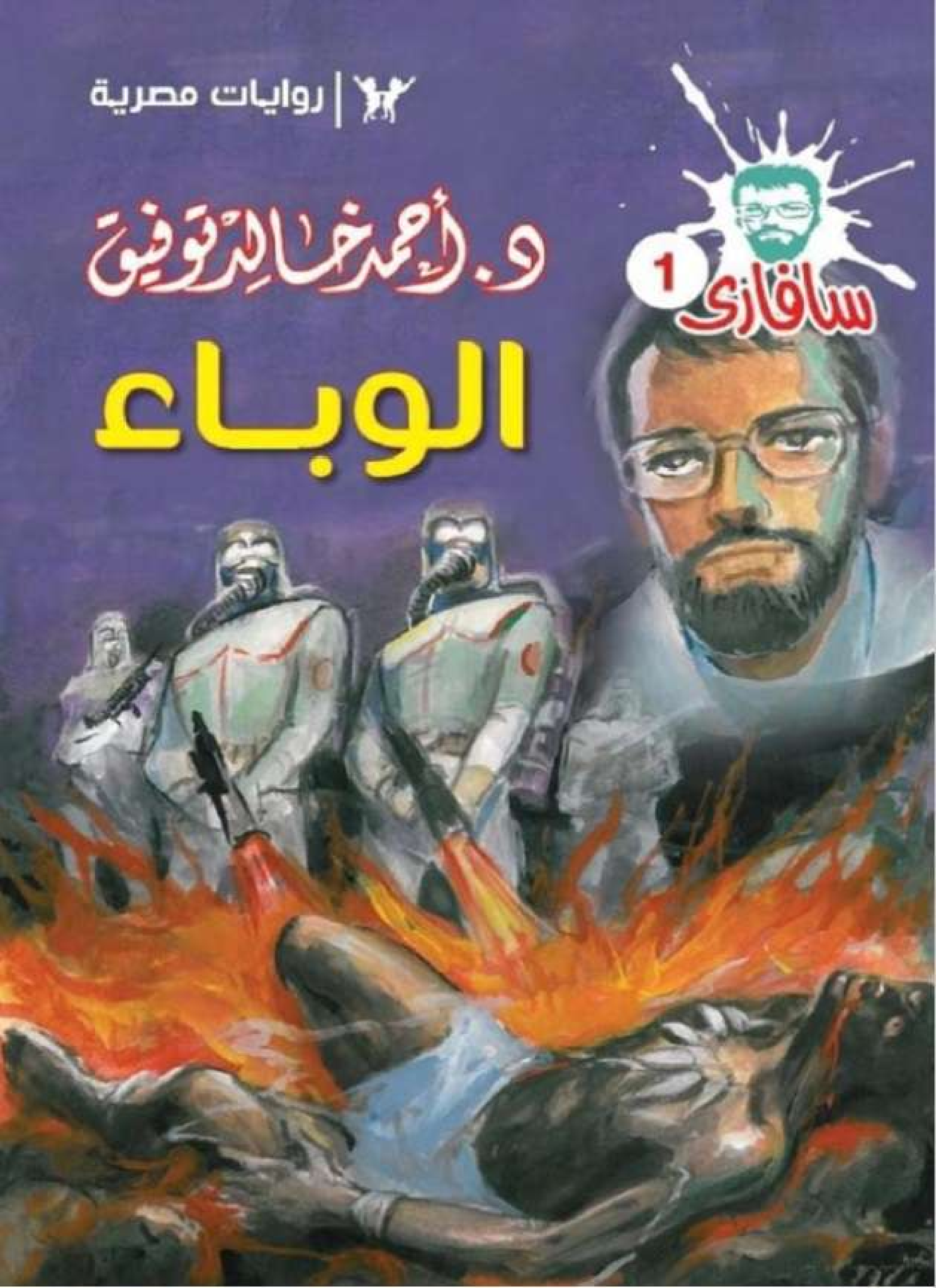

روايات مصرية
سافارى
1
د. أحمد خالد توفيق
الوبـاء

مقـــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سفرية) العربيـة .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحـدثون عن رحـلات صيـد الوحـوش فى أدغـال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنـا كـانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـا الـذى سنقابله دومًـا ، ونألفـه ، ونتعلـم أن نحبـه هـو د. (عـلاء عبـد العظيـم) .. شـاب مصـرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاتـه بعيدًا وسط أدغـال (الكـاميرون) ، وفـى بيئـة غريبـة وأمـراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفـى هـذه الروايـات نقـرأ مذكـرات د. (عـلاء) .. نعيش معـه فـى ذلـك العـالم العجيب الـذى لـم تنجـح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسـات القاتلـة .. والسـحرة المجـانين .. وأكلة لحـوم البشـر .. والمرتـزقـة الذين

لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

مرحبًا بكم ..!

مرحبًا بكم !

يبدو لى أننى رأيت هذه الوجوه من قبل .. لا أدرى متى لكنى بالتأكيد قد قابلتها فى مصر .. إننى لن أنسى هذا الوجه الذى لوحته الشمس ، وهذه الآنسة التى تضع العوينات وتعقص شعرها ، والزميل الذى قد تساقط شعر رأسه فى عدة مواضع .. هذه اليد القوية .. إننى أعرفها .. تذكرتها على الفور حين صافحتك ..

هيه ! تعالوا إلى الداخل .. إلى حيث الظلّ .. سأقدم لكم بعض عصير الليمون البارد .. ويمكنكم أن تستمتعوا بهواء المكيف المنعش .. وأن تنزعوا أحذيتكم لو أردتم .. كلا .. لا تخجلوا من رائحة جواربكم فالروائح الكريهة أمر معتاد هاهنا حتى لم نعد نلاحظه !

رحلة شاقة .. أليس كذلك ؟ كيف جئتم ؟ لا بد أنكم ركبتم بعض عربات (الجيب) من (ياوندى) ..

إنه لطريق مرهق للوصول إلى هذه القريــة التى تبعد أميالاً عن (أنجاونديرى) ..

هيه ! أنت ! هل لك أقارب فى (شبين الكوم) ؟ إن وجهك يذكرنى تمامًا بأحد أطباء دفعتنا .. كان من (شبين الكوم) .. وكان سمحًا بشوشًا لكنى نسيت اسمه للأسف ..

مرحبًا بكم .. اشربوا الليمون ولا تخافوا .. فالليمون مطهر وهذا الماء قد سبق غليه .. لا بد من عمل هذا فى المناطق الحارة ..

هل تتعاطون أقراص الوقاية من الملاريا ؟ وهل تلقيتم لقاحات الحمى الصفراء والكوليرا والطاعون ؟ أحسنتم صنعًا .. لن نترك شيئًا للظروف كما تعلمون ..

لا تنسوا أن هذا الإقليم موبوء بذبابة (تسى تسى) التى تسبب مرض النوم .. مضحك ؟ لا ليس مضحكا على الإطلاق .. فمن النادر أن يذهب المريض به إلى مكان آخر غير القبر ..

هناك كذلك أمراض (عمى النهر) ، و(كالا آزار) و .. و .. وكلها ليست مضحكة إلى هذا الحد .. ثم لا تنسوا (الإيدز) ..

مرحبًا بكم ! كلا .. أنا لا أحاول أن أكون مرعبًا .. فقط أنا أضع النقاط على الحروف ..



علاء عبد العظيم

اسمى بالكامل هو (علاء) .. (علاء عبد العظيم) .. سنى حاليًا تسع وعشرون سنة .. أى أننى ولدت عام ١٩٦٦ .. عزب ، ولا أدخن ..

هذه اللحية المحيطة بفمى ؟ تسألون أسئلة غريبة .. ولو لم تكونوا ضيوفى لقلت إن هذا ليس من شأنكم .. لقد أطلقتها هنا ولا أدرى سبب ذلك .. ربما لأبدو أكثر سنًا أو أكثر علمًا .. إن العوينات مع اللحية تجعلك تبدو راهب علم .. هذا مؤكد ..

لماذا جئت ها هنا ؟ سؤال غريب يا (باسم) - أليس اسمك (باسم) ؟ - لنقل إننى لم أجد نفسى فى مصر .. هناك قصة طويلة تشرح هذا .. لكن الحين ليس حينها ..

أنا سعيد ها هنا .. أشعر أن الناس يحتاجون إلىّ وأشعر أننى مفيد .. إنه موضع خطر بعيد وحياة شاقة .. لكن الأرض السوداء هى ما تعطى التفاح والزهور ..

هيه ! ارفعى صوتك فأنا لا أسمعك .. ماذا ؟ تسألين عن أكلة لحوم البشر ؟ إنهم موجودون فى الجنوب الشرقى .. لا تنسى أننا نجاور (الكونغو) .. لكنى لم أرهم ولا أتمنى أن أراهم ..

نعم .. هى تجربة غريبة يخوضها شاب مصرى هاهنا .. لكن هناك سوى المئات ممن يعملون مع منظمة الصحة العالمية ، وصندوق التعاون الإفريقى ، و (أطباء بلا حدود) ..

فقط أنا المصرى الوحيد الذى يعمل فى جهاز (سافارى) ..

إن أشياء غير عادية ستحدث حالاً ..

لكم أن تراهنوا على ذلك ..

★ ★ ★

١- عوامـــل طـــرد !

شاب مصرى آخر من الذين يملئون الطرقات فى ليالى الخميس .. يقف فى شرفة دارهم عصرًا بسروال المنامة والفانلة الداخلية ، وجواره على السور تقعى هرّته ، مشمشية اللون ناعسة العينين تقرّ ..

يأتى أصدقاؤه ينادونه من الشارع مصفرين ، فيهرع باحثًا عن قميصه الذى أخذه أخوه وخرج غالبا .. يفتح درج مكتبه الذى يحوى كتب (مصطفى محمود) و (أنيس منصور) بحثًا عن زجاجة الـ (بروت) ذات القلادة المعدنية .. يغمر وجهه بالعطر ، ثم يخرج وفى جيبه خمسة جنيهات عليه أن يبقى منها أكبر قدر ممكن ..

شاب يدخل السينما ويتشاجر لأن روّاد (الترسو) يقذفون الصالة بلفافات التبغ المشتعلة .. ثم يخرج مع أصدقائه ليتشاجر من جديد معهم ؛ لأن كلاً منهم

يصرّ على أن الحسناء التى ترتدى (الجينز) ابتسمت له هو بالذات ..

شاب مصرى آخر قضى أعوامًا فى دراسة الطبّ .. واعتاد على أن يناديه الجيران ليقيس ضغط (أم ممدوح) فى الرابعة صباحًا ، حينما تصرّ على أنها تموت . وهى ـ بالمناسبة ـ تموت منذ عشرين عامًا .

ويتخرج فى الكلية .. ثم يمرّ بسنوات التجنيد .. ويجد نفسه طبيبًا مقيمًا فى مستشفى صغير من مستشفيات الأقاليم ..

هذا الشاب هو ـ بالصدفة ـ أنا ..

★ ★ ★

شاب مصرى آخر يقضى أمسياته فى النوبتجيات ، ثم يصعد إلى مسكن الأطباء الذى يحوى منضدة وفراشين وبورصًا وصرصورين وتلفزيونًا من القرن الرابع عشر بلا صوت ولا صورة ، لكن حالته ممتازة برغم ذلك .

يسمع كلمات هامسة من التومرجى .. فيفكر ويفكر .. ثم يقتنع فيذهب لتفقد موقع العيادة .. هناك كومتان من القمامة .. العيادة تقع بجوار الكوم الأكبر ..

فلا يبقى سوى اللافتة .. لافتة يكتبها (بسيونى) خطاط المستشفى بخطه الردىء : دكتور (علاء عبد العظيم - باطنى - حميات - أطفال - نساء وولادة) ..
ويأتى أربعة مرضى فإذا هم جميعًا من أقارب (بسيونى) وكلهم لا يريدون الدفع ..
وتمرّ الأيام ثم تظهر (نسرين) .. وهى - كما هو واضح - طبيبة شابة حسناء لا يحيط بأصابعها أى قيد ذهبى قبيح .. وهى تخاف كل شىء وتحتاج إلى الجميع .. لهذا كان لا بد أن يهيم بها حبًا ..
ويحدث كل ما هو متوقع فى هذه الأمور .. الزيارة الليلية لدارها مع (الحاجة) وشقيقه الأكبر .. والجلسة الطويلة إياها .. والبونبون المشحّم الذى يلتصق بالأصابع والأسنان ..
ثم السؤال عن الإمكانات المادية ..
الراتب مائة وعشرون جنيهًا بالتمام والكمال .. العيادة تدرّ مائتى جنيه قابلة للزيادة ..
- « سأشترى جهاز رسم قلب بالتقسيط من معرض النقابة .. هذا سيجعل عهدًا من الرخاء يبدأ .. » .
هنا يخبرك الأب - فى أدب - أن الأربعمائة جنيه

صالحة جدًّا لبدء عهد من الرخاء للصراصير .. لكنها لا تفتح بيتًا فى (الهندوراس) ..

طبعًا لا توجد شقة باعتبار أن شقة (الحاجَة) واسعة بما يكفى ..

وحين تنتهى المقابلة يعرف جيدًا أن طلبه قد رفض .. شاب مصرى عادى جدًّا .. أليس كذلك ؟

★ ★ ★

إن جراح القلب شىء مسلٍّ .. وهى طريقة مضمونة لتجد ما تفعله فى الأمسيات الهادئة : تتألم .. تكتب شعرًا رديئًا وتحسو أقداح القهوة والشاى الثقيل مرددًا : سيرون جميعًا .. الأوغاد ! وتستمتع بلذة أن تكون مظلومًا لم يفهمه أحد ..

لكنك تدرك أن الأمر جدّ خطير .. فراتبك ودخل العيادة غير قابلين للزيادة .. وأسعار الشقق مرعبة .. إن طريقك طويل ضيق يمتد إلى ما لا نهاية .. بمعنى أنك لن تجد انفراجًا ولو مشيت ألف عام ..

يقولون إن الأمل موجود .. لكنك لا تجرؤ على الاعتراف بذلك .. وفى الوقت نفسه يبدو اليأس شيئًا مبتذلاً مستهلكًا ..

وتواصل ما تفعله الحيوانات دائمًا .. البقاء حيًّا ...

يسألك أهل المرضى عن سيارتك ، فتقول إنها فى (عَمْرَة) ولهذا عليهم أن يدبروا لك وسيلة انتقال .. تسألك الممرضة السمراء ذات العينين الراقصتين عما إذا كنت مضربًا عن الزواج ، فتدعى أنك لا تفكر فيه قبل أن تظفر بمكانة علمية مرموقة .. يسألك الجميع عن النجاح فتقول إنه قريب جدًا ..

شاب مصرى عادى جدًا .. أليس كذلك ؟

★ ★ ★

كنت تزداد عصبية وتزداد ضيق صدر ..

ربما كنت سترحل فى جميع الظروف .. إلى الشرق أو إلى الغرب أو ـ ربما ـ لأعلى ، حتى لو لم تظهر (عفاف) فى حياتك .. لكنها بالتأكيد قامت بتعجيل ما حدث ..

إنه الخطأ الشائع لدى صغار الأطباء .. (عفاف) فتاة شابة فى السابعة عشرة من عمرها .. آلام فى صدرها فى الناحية اليسرى .. فحصها صاحبنا ورأى أن الأمر لا يزيد على آلام روماتزمية تحدث كثيرًا ..

لكن الحالة تزداد سوءًا .. وفى المساء علم أنها فى المستشفى مصابة باحتشاء بطينى (وبلغتنا نقول :

إن جزءًا من عضلة قلبها مات) .. ويبدو أن شيئًا ما لم يكن على يُرام فى شراپينها التاجية .. وهى حالة نادرة فى سنها ..

كان هناك طبيب أكثر حذقًا وأكبر سنًّا رآها .. وتساءل : لماذا لم تَزُل آلامها مع أدوية الروماتزم ؟ وقام برسم قلبها ، فعرف ما عرف ..

لم تمت (عفاف) .. ولو ماتت للحقت بها .. لكنك طفل لا يسمح لنفسه بالفشل .. ولا يلتمس لنفسه الأعذار ..

لكل جواد كبوة .. و (حتى هومير يحنى رأسه) كما يقول الإنجليز .. لكن كبوة الطبيب قد تكون قاتلة ..

وشعرت أنك لم تعد قادرًا على ممارسة مهنتك فى هذه المدينة الصغيرة .. بالتأكيد يرمقك الجميع ويتهامسون .. كلهم يعرفون .. كلهم يتهكمون ..

وكانت هذه هى عوامل الطرد ..



٢ - عوامـــل جـــذب !

كـان إعلانـًا فـى جريـدة يوميــة .. وكـان مكتوبـًا بالفرنسية ..

أنا أتكلم الفرنســية وأكتبها أفضـل مـن كثيرين فـى ظروفـى ، ربمـا لأن هـذه اللغـة كـانت تبهرنـى دومـًا بقيودها فى القواعد والنطق .. لست أدرى كيف يسبّ الرعاع بعضهم فـى الفرنسية مرغميـن أنفسـهم علـى ضمّ الشفاه ، ودقة تصريف الأفعال ..

المهم أننى عرفت أنهـم يريـدون أطبـاء للعمـل فـى إفريقيـا .. وبـدا لـى هـذا جديرًا بالتجربــة .. أرسـلت أوراقى وطلبونى للمقابلة الشخصية ..

كنـت متأنقـًا وكـان هنـاك بعـض السـادة المتـأنقين بدورهم ، الفاخرين جدًّا .. أنا لا أعرف شكل (باسـتير) لكنى أشك فى أنه كان معهم فى تلك القاعة ..

ودارت محادثة فرنسية عن ظروفى .. عن دراستى .. عن السبب الذي يجعلنى أعتقد أننى صالح للعمـل فـى إفريقيا السوداء ..



ودارت محادثة فرنسية عن ظروفى .. عن دراستى .. عن السبب الذى يجعلنى أعتقد أننى صالح للعمل فى إفريقيا السوداء ..

ثم قال لى أكبرهم سنًا وأعلاهم مقامًا كما هو واضح :

- « إن إفريقيا ليست مكانًا للسياحة خاصة حيث يفترض أن تذهب .. فما الذى يدعو شابًا مثلك لترك حياة المدينة إلى هناك ؟ » .

قلت له وأنا أزن كلماتى جيدًا :

- « ربما لأننى لم أجد ذاتى ها هنا .. وأريد البحث عنها فى الأحراش .. » .

سألنى وهو ينزع عويناته .. ويغمض عينيه إرهاقًا :

« وما هو المبدأ الذى ستسير عليه هناك ؟ » .

فكرت حينًا ثم قلت العبارة التى اجتهدت أسبوعًا فى تأليفها وإعرابها :

- « إن حياة الإنسان ورفاهيته هى المبدأ الوحيد الذى يستأهل أن نحققه بأى ثمن .. » .

تبادلوا الكلمات همسًا .. ثم رأيت الرضا على وجوههم ..

قال لى محاورى وهو يضع عويناته من جديد :

- « نحن لم نتفق بعد بشأنك .. لكن - لو تم قبولك - سيتم ضمك إلى وحدة (سافارى) للأمراض فى المناطق الحارة .. هل سمعت عن (سافارى) ؟ »

كدت أردّ بالإيجاب لكنى خشيت أن يكون قد نصب لى شركًا ما .. لذا هززت رأسى نفيًا وأنا آمل ألا يكون الجهل خطيئة ها هنا ..

قال كأنما يتوقع عدم معرفتى :

ـ « إن (سافارى) منظمة دولية تعمل على ملاحقة المرض فى أحراش إفريقيا وأدغالها .. »

ـ « هل هى تابعة لمنظمة الصحة العالمية ؟ »

ـ « لا .. ولا (اليونيسيف) .. إنها مستقلة تمامًا .. »

ـ « هل تمويلها يهودى ؟ »

تبادل النظرات مع أصدقائه .. ثم قال فى ضيق :

ـ « إن (معاداة السامية) غير واردة هنا .. »

قلت مصممًا على توضيح هذه النقطة :

ـ « أرجو المعذرة .. لكنى أرجو أن تسمح لى بالكلام بصراحة .. »

ـ « تفضل .. »

ـ « لقد اعتدنا على أن يكون تمويل هذه المنظمات الغامضة يهوديًا .. لا بأس .. أنا موافق .. لكن فى كل مرة يتضح لنا أن الفارق بين اليهودى والصهيونى باهت جدًا أو غير موجود .. أنا لا أخلط بين (يهودى)

و (صهيونـى) .. لكنهـم هـم الذيـن يخلطـون .. والصهيونية تعنى عندنا - معشر العرب - (إسرائيل) ولا شىء سواها .. »

قال فى ذات الفتور :

- « أفهم وجهة نظرك .. لكن دعنى أؤكد فى أمانـة أن (سافارى) تموّل من بعض أثرياء الولايات المتحدة وبنـوك سويسرا وبعض دول الخليـج . لا يوجـد رأس مال صهيونى فى الموضوع إذا كان هذا ما يقلقك .. »

ثم ناولنى منشورًا مطويًا طبع على ورق مصقول .. وقال :

- « هنا تجد تاريخ (سافارى) وكيفية إنشـائها .. حاول أن تقرأه فى عناية .. »

- « وأين سأعمل فى حالة القبول ؟ »

- « فى (الكاميرون) أو (الجابون) غالبًا .. وأرجو أن تبقى على اتصال بنا فى الأيام القادمة .. »

وخلع عويناته بمعنى أن المقابلة قد انتهت ..

★ ★ ★

نسيت كل شىء عن الموضوع فى الأيام التالية .. فمن المؤكد أن كلامى عن اليهودية أحنق الرجل ..

وربما كان هو ذاته يهوديًا .. لكن لا حيلة لى فى هذا ..
لا أريد أن أنزلق بحسن نية إلى منظمة دولية مريبة ،
ثم أجد أننى صرت رقمًا إحصائيًا تفخر به (إسرائيل) ،
حين تتشدق بعدد العرب الذين يتعاونون معها ..

لكن الهاتف دق فى بيت أبى يومًا .. وعرفت أنهم
يريدوننى لاستلام تذكرة الطائرة وإعداد أوراقى ..

رباه ! بهذه السرعة ؟!

عندها شعرت بأحشائى تتقلص .. وللمرة الأولى
أدرك أن السفر ليس بهذه السهولة التى كنت أحسبه
بها .. وسفر لأين ؟ ليس إلى أوروبا حيث يسافر
مئات من الدارسين .. ولا إلى الخليج حيث يسافر
آلاف من الأطباء الشبان .. بل إلى (الكاميرون) ..
(الكاميرون) التى لا أعرف موضعها على الخارطة ..
ولا أعرف أن أحدًا زارها قط ..

وهرعت إلى الأطلس ودائرة المعارف أعرف شيئًا
أو شيئين عن هذا البلد .. ثم هرعت أفتش عن
المنشور الخاص بـ (سافارى) الذى لم أعد أذكر أين
وضعته بعد عودتى من المقابلة الشخصية ..

آه !.. ها هو ذا ..

★ ★ ★

وحدة (سافارى)

- « سنلاحق الأمراض فى إفريقيا السوداء ، كما لاحق آباؤنا الأسود والنمور فى رحلات الـ (سافارى) .. »

كانت هذه كلمات البارون (فون رامشتيت) عام١٨٥٧ لضيوفه فى (فيينا) ، وهو يضع البذرة الأولى لمنظمة (سافارى) ، التى وضعت على عاتقها محاربة الوباء فى قارة محرومة من الخدمات الصحية .

واحتاج الأمر إلى مائة عام كى يتحقق الحلم ، فغدت (سافارى) منظمة دولية لها صلة مباشرة بالصحة العالمية ومركز الـ CDC (السيطرة على الأمراض المعدية) . وصار لدى (سافارى) ميزانية هائلة تبلغ مليارًا من الدولارات ، ويعمل تحت لوائها أكثر من ألف طبيب فى أكثر من خمسة عشر بلدًا إفريقيًا ..

لقد تمكن أطباء (سافاري) من اكتشاف ثلاثة فيروسات جديدة ، وسلالة غير معروفة من الديدان الأسطوانية ، ووصفوا وباء (الناكالانجا) فى (أوغندا) ، كما أنهم أنقذوا الألوف من ضحايا الحروب الأهلية فى (زائير) و (ليبريا) و (رواندا) .

وبهذا يضيف أطباء (سافارى) الكثير إلى رفاهية الجنس البشرى وتقدمه ويثرون علم الطب باكتشافاتهم التى لا تنتهى .

لقد اشتهر (ألبرت شفايتزر) الطبيب والفيلسوف العظيم فى أرجاء إفريقيا ، وهو الذى لم يكن يحمل سوى أدواته الطبية وكتابه المقدس ومسرحيات (شكسبير) وعلمًا لا حدود له .

اليوم يحاول ألف طبيب من كل الجنسيات أن يصيروا ألف (ألبرت شفايتزر) .

★ ★ ★

قرأت المنشور وبدأ ذعرى يتضاءل .. يتضاءل .. ثم بدأ بعض الحماس ينمو .. ينمو .. وبدأت أشعر بأننى - ربما - واجد ذاتى هناك ..

وقضيت الوقت - كما لكم أن تتوقعوا - فى توديع الرفاق ، وحزم حقائبى وشراء ثياب داخلية بدل تلك التى أبلاها الغسيل .. وجوارب غير مثقوبة وفرشاة أسنان جديدة ..

وفى مكتب (سافارى) أعطونى عددًا لا بأس به من التطعيمات ، وأعطونى أقراصًا للوقاية من الملاريا

وعمى النهر والفيلاريا .. مع قائمة من التعليمات بصدد الطعام وشرب الماء ..

- « النصيحة الأهم .. » - هى أنهم قالو لى - « لا تأكل أىَ طعام لا يتصاعد الدخان منه .. الخضراوات الطازجة محرمة كالجحيم .. »

كنت أشعر بأننى تحولت إلى مزرعة باكتريا حيَة .. وأن جهازى المناعى يصرخ احتجاجًا من كل الأجسام المضادة التى يطالبونه بأن ينتجها .. أعتقد أن الحمى الصفراء ليست أكثر فظاعة من لقاحها ..

وفى ليلة السفر لم يغمض لى جفن ..

وفى السادسة صباحًا سمعت من تحت شرفتى كلاكس (يا واد يا دقدق يابن الإيه) الذى يستعمله (أشرف) صديقى .. وهو جزء من ثقافته اكتسبه من سائقى اللورى ، ويفخر به كثيرًا ..

كان هذا هو موعد الانطلاق إلى المطار ..

حسن .. لا داعى لوصف لحظات الوداع .. فالحقيقة هى أنه لم يكن هناك وداع لأنى عبرت الصالة سريعًا وسط الوجوه الواجمة .. لن تكون هناك قبلات ولا دموع .. الأغبياء فقط يطيلون عذابهم

بهذه الطريقة .. كلا لا داعى لأن أنظر إلى أمى .. فقط أراها فى ركن النظر بقعة داكنة ترتجف وربما تنهنه ..

ـ « مع السلامة .. »

قلتها .. وحملت حقيبتى الثقيلة الوحيدة ورحت أترنح فى الدرج نازلاً ..

وبعد دقائق كانت سيارة (أشرف) المتهالكة تهرع ملهوفة إلى المطار .. ولم يقل (أشرف) شيئًا ؛ لهذا قررت أن أقول أنا ..

ـ « (أشرف) .. أنا مضطر لهذا .. فمصر أضيق من أن تتسع لى .. »

قال دون أن يبعد عينيه عن الطريق :

ـ « لكن (الكاميرون) ليست بالاتساع الذى تحسبه .. أنت الأحمق الوحيد الذى يفرّ من وضع سيئ إلى جهنم ذاتها ! » .

ـ « وهل سمعت عن أحد زار (الكاميرون) ؟ من قال إنها جهنم ؟! »

ـ « أدغال وملاريا وحمى صفراء .. أراهن على أن النمور ستلتهم مؤخرتك قبل أن تعود إلى هنا نادمًا ، وتبحث عن عقد عمل فى الخليج .. »

- « إن الراتب ألفا دولار شهريًا .. »

- « هذا جميل .. لكن لا بد أن تكون لك يد لم تتآكل من الجذام كى تتقاضى الراتب بها ! »

تنهدت فى سأم .. وعدت أرقب الطريق ..

لن تلتهم النمور مؤخرتى ، ولن يأكل الجذام يدى .. أنا أعرف أننى سأنجح .. حتمًا سأنجح ..

وارتفعت الطائرة لتعبر الفجوة بين عالمين ..

★ ★ ★

٣ـ أنجاونديرى ..

(أنجاونديرى) من المدن المهمة التى تقع شمال (الكاميرون) .. ولأنها فى الشمال فهى دانية جدًا من حدود (تشاد) و (نيجيريا) ..

إن (أنجاونديرى) هى ـ بشكل أو بآخر ـ أقرب إلى مدينةَ نيجيرية منها إلى مدينةَ كاميرونية ، والواقع أن جنوب (نيجيريا) هو أصلاً جزء شمالى من (الكاميرون) تم ضمّه إلى الأولى بعد الحرب العالمية الثانية ..

أما ما نعرفه باسم (جمهورية الكاميرون المتحدة) فقد انضمَ إلى مناطق النفوذ الفرنسى فى الجنوب ..

وكانت المنطقة التى بدأت عملى فيها تبعد أميالاً عن (أنجاونديرى) .. لكنها فى نطاقها .. كما أن الوحدات الريفيةَ المحيطة بالمركز عندنا تقع تحت الإدارة الصحية لهذا المركز ..

والآن دعنى أقدم لك وحدة (سافارى) فى هذه

المنطقة ، والتى تعتبر الوحيدة من نوعها فى (الكاميرون) ..

* * *

يشبه مبنى (سافارى) حرف (لام) اللاتينى (L) ..

ويقع فى مساحة أنيقة من الحدائق المعتنى بها جيدًا .. وتحيط به شبكة من الطرق الممهدة .. الخلاصة أنه يبدو كقطعة من أوروبا .. ولا علاقة له بكل الفقر والتوحش المحيطين به ..

توجد بعض السيارات من طراز (لاندروفر) وعربة إسعاف .. وعربة أو اثنتان من طراز (بيجو) تخصان مدير الوحدة ..

فإذا سمحت لى بأن ندخل المبنى ؛ يمكننا أن نجتاز ممرًا مرصوفًا يزدان على جانبيه بالزهور التى يؤسفنى أننى لا أذكر اسمها ..

فى النهاية تجد بابًا زجاجيًا كتب عليه بالفرنسية : (ادفع) .. فتدفع .. لتجد نفسك فى قاعة استقبال مكيفة الهواء ، وموظفة استقبال إفريقية تسألك فى شك عن وجهتك ..

كلا .. المرضى لا يدخلون من هنا .. بل هم

يقصدون إلى العيادات الخارجية والطوارئ ، وكلها موجودة فى الطابق الأرضى من المبنى ، فى الذراع الطويلة لحرف (L) اللاتينى ..

فلو سمحت لى بالخروج من الباب الخلفى للاستقبال ، لرأيت مشهدًا غريبًا يتناقض مع كل هذا الثراء وهذه الأناقة ..

ستجد أطفالا يعوون كالذئاب متعلقين فى أثداء أمهاتهم الضامرة .. وشيوخًا مكفوفين بفعل الجذام يتكئون على عصيّهم بأيد متآكلة .. وشابة سوداء محمولة على محفة فى غيبوبة عميقة ، ربما بفعل مرض النوم أو الملاريا المخية .. وشابًا يتحامل على ساقه التى تنزف دمًا من جرح يشى بأنه نُهش بأنياب وحش ..

هل لى خبرة فى طب الطوارئ ؟

بالطبع لى .. وخبرة هائلة .. إن من لا يجيد طب الطوارئ فى قلب إفريقيا هو ـ حتمًا ـ أحمق .. ثم إن الأمر يحتاج إلى سعة خيال .. فالتعامل مع من التهمت التماسيح ذراعه ، أو سقاه الساحر منقوع (الكاسافا) المسموم ، لهو أمر لا تجده فى الكتب ..

لكن حكايتنا اليوم ستكون من معزل الحميات ..
صبرًا .. فلم يأت الوقت لهذا بعد ..

★ ★ ★

لدينا فى وحدة (سافارى) مائتا موظف .. إنها وحدة ضخمة حقًا ، لكن الوجوه التى يمكن أن تعلق بذاكرتك لا تتجاوز عشرة وجوه .. وأنا لا أتعامل إلا مع هؤلاء .. أو أتجنب التعامل مع بعضهم بالذات .. سأقدمهم لك واحدًا واحدًا ..

• بروفسور (موريس بارتليه) .. رئيس الوحدة .. فرنسى صميم .. كنت أتمنى أن أقول إنه يبدو كـ (باستير) .. لكن الحقيقة أنه شىء بدين مترهل يبدو أقرب إلى الزبد منه إلى الإنسان ..



البروفيسور
موريس بارتليه

يقولون إنه عبقرى فى علم الميكروبات ، وإنه من سادة معهد (باستير) .. الحق أننى لم أجرب هذا ..

ولم أقرأ اسمه قط فى أىّ مكان إلاّ على جدار مكتبه ..
وهو كرئيس لا بأس به .. لكن تعييه تلك الحاجة الملحَّة إلى تبرير نفسه وأفعاله ، مما يشى بضعف أصيل فى الشخصية ..

• بروفسور (كارلو سباتزانى) .. إيطالى .. جرّاح بارع حقًا .. ولطيف المعشر كما يصورون الإيطاليين فى الأفلام الخفيفة .. وسيم كالشمس ، ثرثار كببغاوات الأمازون ، ذكى كالشيطان .


آرثر شِلبى

• بروفسور (آرثر شِلْبى) ـ بكسر الشين وتسكين اللام ـ أستاذ طب المناطق الحارة الأمريكى .. وهو أمريكى جدًا جدًا .. بارع فى علمه لكنه خبيث .. وأنصحك ألاّ تثق به كثيرًا ..

• بروفسور (ديفيد جيديون) .. إنجليزى وأستاذ علم الأمراض .. واضح لكل من قرأ التوراة أن اسمه يفوح بيهوديته كنجمة سداسية .. رجل وقور وصموت .. لكنه بالتأكيد لا يطيق رؤية ظلّى على الأرض ، كأنما أنا من بغض طلعتى أمشى على كبده ..

• بروفسور (هانز شيفرن) .. ألمانى تخصص فى علم المناعة .. وقد عمل لفترة فى معامل شركة (شيرنج) .. وهو حجة فى علمه ..

• د. (إبراهام ليفى) شاب إسرائيلى .. طبيب شاب تخصص فى طب العيون .. وأنا لا أطيقه وهو يمقتنى .. علاقة بسيطة جدًا أدركها الجميع ها هنا ، لهذا يحاولون أن يبعدونا عن أى عمل مشترك ..

إبراهام ليفى

• د. (برنادت جونز) .. زهرة (سافارى) و (دلوعة) المستشفى .. وهى طبيبة أطفال بارعة الحسن ، ويبدو أنها تعتبرنى صديقها .. وأنا فخور بذلك كما لك أن تخمن .. هى (كندية) .. وتعشق الأطفال إلى حد الخبال ..



برنادت جونز

• د. (ماى فاى لين) .. زهرة أخرى من الصين .. ولا أحد يفهم لغتها الفرنسية ولا الإنجليزية .. ولا نستبعد أن نكتشف فيما بعد أنها ليست طبيبة ، وأنها لا تدعى (ماى - فاى - لين) ، وأنها غير مختصة بأمراض النساء والتوليد .. لكن الكلّ يحبّ وجودها ها هنا ..


دولا لوبولو

• د. (دولا لوبولو) .. من الأطباء الأفارقة القلائل ها هنا .. وهو مختص بالأمراض الباطنة .. لكن عمله الأساسى هو أن يشرح لقومه ما نريد منهم .. ثم يشرح لنا لماذا لا يطيعنا قومه .. وعامة لا يمكن الاستغناء عنه لأنه خبيرنا ومترجمنا ومرجعنا فى عادات الأهالى وحاجاتهم النفسية ..

ربما كان هؤلاء هم الوجوه البارزة المرموقة فى وحدة (سافارى) .. أما من بقى فى المستشفى فدورهم شبيه بدور (الكومبارس) المتكلمين فى فيلم سينمائى ضخم ..

هل أنا من الأبطال أم (الكومبارس) ؟ إننـى أتـرك لكم تحديد الإجابة فى الصفحات القادمة ..

والحقيقة ها هنا هى أن (سافارى) آلة عملاقة .. فيها تروس كبيرة وتروس صغـيرة .. لكـن كـل تـرس يؤدى عمله فى موقعه بالذات .. وغيابه سيؤدى حتمًا إلى تعطل الآلة .. فلا يهمنى حجم ترسى كثيرًا ..

رباه ! إنهم بحاجة إلىَّ ها هنا !

★ ★ ★

٤ـ العيون التى تقطر دمًا !

سمعت المرأة الحشرجة فهرعت إلى الكوخ لترى ..

كانت قد انتهت من نشاطها اليومى الصباحى المعهود ، فقامت بملء الجرار وحلب الماعز وخبزت معجون الموز ، وطحنت الحبوب ، وأشعلت الموقد و ... و ... وقد حان الوقت لتنعم ببعض الراحة ..

لكنها سمعت صوت الحشرجة ، فهرعت إلى الكوخ لتجد (جومبا) زوجها راقدًا على الأرض يتلوى ..

كانت تعرف أنه لم يكن على ما يرام ليلاً .. كان محمومًا وعيناه كقدحى دم .. وكان يهذى نوعًا ..

لكنها ـ فى هذا الصباح ـ عرفت أنه مريض جدًا ..

الدم يسيل من فتحات جسده التسع ، كأنه كيس دم قد تم ثقبه فى عدة مواضع ..

سألته عما به بلغتها (البانتويدية) الغليظة ..

فراح يردد دون كلال أن ما به هو (داوا) .. (داوا) قوية ..



لكنها سمعت صوت الحشرجة ، فهرعت إلى الكوخ لتجد
(جومبا) زوجها راقدًا على الأرض يتلوى ..

و (الداوا) لمن لا يعلم هى السحر الأسود عند الأفارقة .. وهى لفظة موجودة فى كل موضع فى إفريقيا السوداء .. الأطفال يموتون بالإسهال بسبب الـ (داوا) .. الشيوخ يلفظون أنفاسهم ليلاً بسبب الـ (داوا) .. إن الأفارقة لا يؤمنون بالمرض ويعتقدون أن السحر هو التفسير الوحيد لأى شىء سيئ ..

وهكذا لم يعد أحد قادرًا على إنقاذ زوجها سوى الساحر ..

هرعت إليه فى كوخه ، وكان جالسًا ـ كعادته ـ أمام قدر كبير يداعب قلادته الملأى بأنياب القطط الوحشية ، ويترنم للأرواح .. وكان وقورًا يريد الحفاظ على (البرستيج) المهنى الخاص به .. لذا اشترط عليها أن تجلب له المريض حيث هو ، على الأساس الشهير (اللى عايزنى ييجى لى أنا مباروحش لحدّ) ..

وتعاونت مع أربعة رجال أقوياء على حمل زوجها الذى ينزف من فتحاته التسع إلى الساحر فى كوخه ..

قام بفحصه بدقة .. وفتح فاه .. وأدخل إصبعه فى أنفه فخرج ملوثًا بالدم .. ثم بدا على وجهه الذى يلتمع بالعرق أنه فهم ..

ـ « آه .. !.. داوا .. ! »

لم يكن فى هذا جديد ، لكن الساحر أعلن أن الأرواح الشريرة قد سكنت جسد زوجها .. وعليه أن يطردها .. سيكون هذا عملاً شاقًا لكنه سيؤديه عن طيب خاطر مقابل ثلاث دجاجات بياضة ..

وتم الاتفاق سريعًا .. فحملوا جسد المريض الذى يتساقط منه الدم دون جروح إلى ساحة القرية ، وأرقدوه هناك ..

واحتشد الغلمان العراة يرمقون المشهد فى استمتاع ..

وكعادة السحرة فى هذه المناطق ؛ قام الرجل بوضع وعاء خشبى هائل الحجم على صدر المريض .. ثم وضع قدمه الحافية على بطنه .. ورفع (نبَوته) فى الهواء وراح يهوى به بعنف .. ليدق دقًا حثيثًا على الوعاء .. كأنه يسحق الحبوب فى الهاون ..

إنها الطريقة المضمونة لطرد الأرواح الشريرة ، لأنه ما من روح تحترم نفسها يمكن أن تتحمل كل هذا الصخب .. بل إن هذه الوسيلة قد تؤدى لطرد روح المريض نفسه ..

وقد كان .. فبعد دقَ استمر بضع دقائق كف الزوج عن الأنين والحركة .. وبدا واضحًا للواقفين أنه لن ينهض ثانيًا ..

أعلن الساحر أن الرجل قد مات لأن جسده شرير بلى ترك الأرواح ..

ودعا إلى التفرق لأنه ما من شيء آخر يمكن عمله ..

وعندما أقبل المساء كانت المرأة تشعر هى ذاتها بأنها ليست على ما يُرام .. وعند عصر اليوم التالى كانت قد ماتت ..

★ ★ ★

شهد الأسبوع التالى أحداثًا غريبة ..

فى البدء شعر الساحر نفسه بسخونة وتوعك .. وكان يعرف أن الأرواح الشريرة لا تجرؤ على الدنو منه ، لهذا لم يسمح لأحد أن يدق الهاون الخشبى فوق صدره ..

كان واثقًا من أن أحد أعدائه دس له السمّ ، لهذا انفرد بنفسه فى الدغل المجاور للقرية ، وراح يحاول القىء مستعملاً مزيجًا من الأعشاب صنعه بنفسه ..

بيد أن المحاولة لم تسفر إلا عن تفجير نافورة دم من أحشائه ..ومن عينيه سال الدم مدرارًا ..

ووجدوه فى الصباح جثة هامدة فى الدغل ، وهنا فقط بدءوا يشعرون بأن الأمور ليست على ما يُرام .. فهذه (داوا) غير معتادة .. (داوا) مستوردة عنيفة الوطء ..

لقد مات الساحر ، وقرية بغير ساحر هى قرية منتهية ..

لذا سارعوا بتعيين ساحر مرتجل يمت بصلة قرابة للزعيم ، وهو ـ للأسف ـ لا يحفظ تعاويذ الشياطين كلها .. لكن ما باليد حيلة ..

واتضحت عدم كفاءة الساحر فى الأسبوع التالى ..

فقد بدأت الوفيات تزداد .. كلهم مصابون بالمرض الذى قرروا تسميته بـ (كافاموجورو) .. ويبدو أن معناها (العيون التى تنزف دمًا) وهى تسمية ملائمة جدًا ..

وفى كل مرة يبدأ المرض بسخونة وألم فى العضلات واحمرار فى العينين .. وبعد يوم أو أقل يبدأ النزف الذى يقتل خلال ساعات أو يوم آخر فى أفضل الظروف ..

رباه ! لقد كان وباء ألعن من أى وباء عرفوه ..

يموت المريض فى الصباح ، ويموت لحادوه فى الصباح التالى ، ويموت لحادوا اللحادين فى الصباح بعد التالي ..

وأحيانًا كان الرضيع يشكو من الحمى .. ثم تموت أمه بالداء بعد ساعات .. وربما يعيش بعدها يومًا قبل أن يأتى دوره ..

لقد عمَ الهلع والرعب القرية الآمنة ..

وفى ذعرهم لجأ الأهالى إلى أول خطأ فى علم الطب الوقائى : بدءوا يهجرون قريتهم ..

كان عدد سكان القرية ثلاثمائة ، مات منهم أربعون فى أسبوع واحد .. وراح مائة يحاولون الرحيل سريعًا .. لا أحد يلومهم .. لكنهم بهذا ينشرون العدوى فى أرجاء البلاد ..

كانوا عازفين عن حرق الجثث .. فديانتهم تحرم هذا حتى لا تتعقبهم الأرواح . لهذا كانوا يدفنون الموتى جالسين بطريقتهم البدائية ، ولم يكونوا يلمسونهم لا لأن الوقاية تقتضى ذلك .. ولكن لأن قوانين (التابو) الصارمة تجعل لمس الموتى جرمًا فاحشًا ، ولعل هذا خير ما فعلوا فى هذا الموضوع .

وسرعان ما بدأ التفاعل المتسلسل الفيزيائى الشهير ..

بدأت حالات المرض تظهر فى ثلاث قرى .. ثم راحت كل قريةٍ تشعُ الداء إلى ما حولها ..

وفى نهاية شهر منذ سمعت المرأة حشرجة زوجها ؛ كانت هناك ستّ قرى تعانى من (العيون التى تنزف دمًا) ..

وكان لا بد للسلطات أن تشعر بالأمر ، فهناك حالتان فى مستشفى (ماروا) فى الشمال أثارتا حيرة الأطباء بكل هذا السيل من الدماء والنهاية الصاعقة التى لا تبقى ولا تذرْ ..

لكن المكتب الإقليمى لمنظمة الصحة العالمية شعر بأن الأمر يبدو مألوفًا .. وتمت عدة اتصالات مع مركز (CDC) ..

وبدأت لفظتا (إيبولا) و(لاسا) تترددان ..

★ ★ ★

ـ عقد الحميات النزفية ..

يقولون إن الفترة بين عامى ١٩٦٧ و١٩٧٧ هى ـ بحق ـ عقد الحميات النزفية الفيروسية .. وخلّفت هذه الفترة المرض وعذاب الاحتضار من (أوغندا) حتى (ألمانيا الغربية) ، ومن (نيجيريا) إلى (سيراليون)[*] ..

لعل الحمى الصفراء هى أقدم الحميات النزفية المعروفة .. فالكل يعرفها منذ قرون .. لكنها كانت دائمًا موضعًا للخلط مع (الملاريا) ..

وفى عام ١٩٦٧ حدثت واقعة كئيبة حين تم استيراد عدد من القرود الخضراء من (أوغندا) إلى (ماربورج) فى (ألمانيا الغربية) وقتها ..

وسرعان ما ظهرت أعراض الحمى النزفية بين عمال المختبرات فى (ماربورج) وحدثت وفيات عديدة ، لهذا أطلقوا على الفيروس اسم (فيروس ماربورج) ..

(*) كل المعلومات ها هنا حقيقية ..

وفى عام ١٩٦٩ كانت ممرضة بإحدى الإرساليات فى (لاسا) شمالى (نيجيريا) تتنزه فى الحديقة .. وكان خطؤها الوحيد أنها فعلت ما تفعله أية أنثى أخرى فى حديقة : اقتطفت زهرة .. فجرحتها شوكتها ..

وكانت هذه فاتحة خير لواحد من ألعن الفيروسات النزفية التى عرفها التاريخ .. فيروس (لاسا) .. فقد أصابتها الحمى وتقرح حلقها ثم توفيت فى مستشفى (بنجهام) التذكارى فى السودان ..

بعد هذا بأيام أصيبت صديقتها (لورا واين) التى كانت تقوم بتمريضها ، وسرعان ما لحقت بزميلتها بعد عشرة أيام من مرض الأولى ..

وبدأت الوفيات تزداد .. ولم يتم نجاة الممرضة (ليلى بنيو) إلا حين تم نقلها إلى الولايات المتحدة ، وإدخالها العناية المركزة فى مستشفى (كولومبيا) ..

كان المرض مروعًا إلى حد أن كل من تعامل معه أصيب بالعدوى .. وتوفى عاملان فى جامعة (ييل) حتى إن الجامعة منعت أى بحوث على فيروس (لاسا) بعد ذلك ..

وبدأت حالات غامضة تظهر فى (أوروبا) ..

لكن أسوأ الحميات النزفية طرًا كان ينتظر دوره ليظهر عام١٩٧٦ .. وذلك فى (زائير) و (السودان) .. وكان يحمل اسم (إيبولا) الذى ينتمى لنفس أسرة الفيروسات الخيوطية التى قدمت لنا فيروس (ماربورج) من قبل ..

واختتم عقد الحميات النزفية بحمى الوادى المتصدع فى (مصر) .. حيث أصيب به مائتا ألف مريض عام ١٩٧٧ .. وقضى على المئات بسبب النزف أو التهاب المخ .. ومن عاشوا كفت أبصارهم للأبد ..

لكن (إيبولا) و (لاسا) و (ماربورج) مازالت فى (إفريقيا) تنتظر .. وكلنا نعرف أن حمى الوادى المتصدع عادت إلى (مصر) فى التسعينات لتحدث وباءً رهيبًا ..

وتتعامل السلطات الإفريقية عامة مع محاولات الغرب للتدخل فى موضوع الحميات النزفية بحساسية شديدة .. ولقد أطلق اسم فيروس (إيبولا) نسبة للنهر الموجود بين (السودان) و (زائير) ، لأن الحكومتين رفضتا فى غضب أن ينسب الفيروس إلى

قرية (ماريدى) السودانية أو (يامبوكو) الزائيرية ، وهكذا اضطرت الـ (CDC) لإيجاد حلّ وسط ..

أما (نيجيريا) فاتهمت (بريطانيا) باختلاق فيروس (لاسا) ، لتقضى على مهرجان الثقافة السوداء الذى عقد فى (لاجوس) عام ١٩٧٧

إذا أضفنا إلى هذا المعتقدات الدينيَّة الوثنيَّة ، وصعوبة المواصلات ، وفقر الإمكانيات ، وعدم تعاون الأهالى ؛ لأدركنا حجم مشكلة الحميات النزفية وصعوبة استئصالها من (إفريقيا) ..

والحقيقة الأخيرة التى لا ننساها هى أن عددًا محدودًا من الحميات النزفية ليس له لقاح أو علاج معروف .. وأن أكثرها قاتل ..

★ ★ ★

وفى وحدة (سافارى) كان لقاؤنا الأول مع الحميات النزفية ..

كانت سيارة الإسعاف تطلق سرينتها المولولة النائحة ، وهى تشق طريقها وقت الغروب عَبْر أحد الطرق القليلة الممهدة التى تقود إلى بناية (سافارى) ..

وكنت أنا مكلفًا باستقبال الطوارئ فى هذه الليلة السوداء .. وقد اعتاد قلبى أن يسقط فى قدمى كلما

سمع صوت هذه السرينة .. ثم صوت النقالة يتمَ
فردها على الأرض .. كليك كلاك .. ثم صوت
العجلات على الأسفلت .. كررررررراك !

بعدها لا بد أن أرى مشهدًا شنيعًا ، ويكون علىَ أن
أواجهه وحدى فلا أصرخ ولا أفرَ ..

ترى ما هى المفاجأة التى يحملها لنا صندوق
المفاجآت ذو العجلات هذه الليلة ؟

كان هناك رجل أسود عارى الجذع يرقد على
النقالة ، وجواره امرأة تولول وتخمش خدَيها ..
وطلبت منهم أن يضعوه على سرير الفحص فى غرفة
الطوارئ ، رحت أتأمل جسده ..

كان فى الخمسين من عمره ، بدينًا مترهلاً ، فقيرًا
كالهنود .. لكنه غير مجروح .. وهذا يريحنى .. فأنا
رجل مسالم لا يحب رؤية هذه الإهانات التى تلحق
بالجسد البشرى الذى كرمه اللهً ..

لكنه كان ينزف ! كل فتحات جسده تنزف ببطء لكن
بثقة ..

ناديت الممرض المحلى (بودرجا) وهو لا يعمل

أى شـىء علـى الإطـلاق سـوى أن يـترجم اللهجـات المحلية لى ..

- « اسأله عما يشعر به .. »

هزّ رأسه فى ذكـاء ، ثـم أطلـق سيلاً مـن الكلمـات بلغة (البانتويد) - وهى لغة تجمع بين لغة (البانتو) واللهجة السودانية - على رأس الرجل ..

فقال الرجل بصوت مبحوح كلمة ما ، ثم صمت ..

قال (بودرجا) فى انتصار :

- « يقول إنه مريض ! »

- « هذا واضح يا أحمق ولا يحتاج إلى خبير حاسبات آلية .. أريد معرفة أعراضه .. أعراضه ! »

عاد يطلق سيل كلماته .. ثم قال لى :

- « كل عظامه تؤلمه .. حلقه جافّ .. يبول ويتبرز دمًا .. »

طلبت من الممرضة الفلبينية (ساروار) أن تحقنـه بالدكستروز وأن تـأخذ عينـة مـن دمـه لنبحـث عـن فصيلة متوافقة ..

كان فى صدمة نهائيـة .. ورجحت أنـه لـن يعيـش طويلاً .. لكنى رحت أحـاول إنعاشـه .. وذهنى يرتّب الاحتمالات ..



ناديت الممرض المحلى (بودرجا) وهو لا يعمل أى شىء على الإطلاق
سوى أن يترجم اللهجات المحلية لى ..

حمى وألم عظام ونزف .. أتراه التيفوس ؟ أم هو مرض (فيل) الناتج عن المشى فى مياه ماتت الفئران بها ؟ أم هو تجلط وعائى منتشر لسبب لا يعلمه إلا اللّه .. أم هو سمٌ ؟ إن تلك السموم الإفريقية التى يركبها السحرة تفعل أىّ شىء فى أىّ مكان فى أىّ وقت ..

الحق أننى عاجز عن اتخاذ قرار .. خاصة وأن حاجز اللغة والثقافة يقف حائلاً بينى وبين معرفة أى شىء عما يحدث ..

نزف وحمى وألم عظام .. ثلاثية تذكرنى بحمى (الدنج) النزفية .. لكن لا (دنج) فى (إفريقيا) كما أنه لا حمى صفراء فى (آسيا) .. هذه قاعدة يصعب خرقها ..

كان علىّ اتخاذ قرار .. والقرار هو نقل المريض إلى معزل الحميات حتى يتبين الأمر .. واستدعاء البروفسور الخبيث (آرثر شِلْبى) كى يبدى رأيه فى كل هذا .. من المفيد دائمًا ـ حين تكون فى بلد غريب ـ أن تلقى بالمسئولية عن كاهلك فى أسرع وقت ، لتقع على كاهل من هو أكبر سنًا أو علمًا ..

جاء الرجل بعد ربع ساعة ، فهو يقيم قرب الوحدة فى فيللا فاخرة مكيفة ، ولديه سيارة من أحدث طراز ..

كان يدخن سيجارًا كعادته ، وقد تهدّلت خصلات الشعر الأشيب على جبينه ، وقد ارتدى قميصًا حريريًا فتح صدره ليبرز مزيدًا من الشعر الأشيب .. وابتسم بثقة وهو يفحص المريض ..

انهال على رأسى بسيل من الأسئلة عن النتائج المعملية .. سرعة التجلط .. سرعة النزف .. إلخ ، وكانت بعضها متوافرة وبعضها لم يصر متاحًا بعد ..

وكنا قد بدأنا عملية نقل الدم للمريض ، لكنه كان يفقده بسرعة غير عادية من فمه وأنفه ، حتى إن الممرضة أصابها الهلع ..

وسألنى البروفسور (آرثر) :

ـ « هل المريض يتكلم ؟ »

ـ « كان له لسان منذ نصف ساعة .. لكنه ينزلق سريعًا إلى الهاوية المظلمة .. »

ـ « ألم يقل شيئًا عن لدغ أفاع ؟ »

تبًا ! إنك لعبقرى ! لم يخطر لى هذا ولن يخطر ولو بعد مائة عام .. كيف لم أفكر فى هذا ؟

الأفاعى الإفريقية قد تسبب تجلطًا وعائيًا منتشرًا بسمها .. وعندها يتخثر الدم فى كل الأوعية الدموية الصغيرة ، ويستهلك الجسم البشرى كل عوامل التجلط فى تجلط لا داعى له .. من ثمَّ يبدأ الدم ينزف من كل موضع فى الجسد دون سبب ..

هذه هى العبقرية .. أن ترى الجانب الآخر من القمر بينما الكل ينظرون إلى جانبه المضىء الواضح .. وقد رأى (شِلبى) ذلك الجانب الآخر ..

قلت بانبهار :

- « نعم .. لم يقل شيئًا عن أفاع .. تكلم عن حمى وألم عظام فحسب .. »

كانت عينه الخبيرة تتفحص جسد المريض .. ثم توقفت عند بقعة محمرة ملتهبة فى صدره وقد اسودَّ الجلد فوقها ..

قال لى فى برود والسيجار لا يفارق شفتيه :

- « أحقًا لم تلحظ هذه ؟ »

احمرت أذناى .. لا بد أنهما احمرتا وأنا أقول :

- « إنه .. إنه خراج عادى .. »

أشار إلى نقطتين واضحتين متلاصقتين وقال :

ـ « ها هى ذى آثار نابى الأفعى ! »

قلت وأنا أشعر بتضاؤل غير مسبوق :

ـ « لكنه .. لكنه لم يذكرها بحرف .. إن من تلدغه الأفعى لا يخفى الخبر فى حياء عمن يحيطون بـه .. أو يتركهم يخمنون .. »

ـ « الطبيب الجيد هو ملاحظ جيد .. » ـ ونفث الدخان فى وجهى ـ « .. إن (البانتـو) لا يحبّـون الكلام عن الأفاعى لأنهم يتطيرون منها .. »

كدت أنحنى إجلالا له .. فهو بحـق أستاذ فـى طب المناطق الحارة .. يعرف الأمراض ويعرف المرضى .. ولديـه جـواب جـاهز فـى كـل ثانيـة .. وهكـذا تغـيَّرت سياستنا فى إنقاذ الرجل إلى اتجاه آخر ..

أحضرت الممرضة عشر أمبولات من المصل المضاد لسمّ الثعابين ، وذوّبتها فى زجاجة دكستروز ، وشرعت تنقط المحلول فى عروق الرجل ..

واستدار البروفسور لـيرحل موزّعـًا ابتسـاماته مـن حوله ، كما يوزّع بابا (الفاتيكان) بركاته ..

ـ « هل من شىء آخر تريدونه ؟ »

قلت وأنا أتبعه فى احترام بالغ :

- « لا .. ونحن نأسف لإزعاجك .. لقد بدا لى الأمر غامضًا و ... »

هنا سمعت الممرضة تصرخ :

- « د. (علاء) ! ثمة شىء ما خطأ ! »

استدرت لأرى ما تعنيه .. فصاحت فى هستيريا :

- « لقد مات ! »

تركت الأستاذ الأمريكى وهرعت نحو فراش الرجل ، أتحسس نبضه .. أقيس له الضغط .. لا شىء ..

رحت أجرِّب عليه كل وسائل إعادة الحياة التى سمعنا ولم نسمع عنها .. ووجهت بعض لكمات قوية إلى صدره دون جدوى ..

رفعت عينى نحو البروفسور طالبًا العون ، لكنه كان واقفًا ويداه فى خاصرته يرمق المشهد فى برود ، وقد رسم تعبيرًا صناعيًّا من الأسى على سحنته .. وسمعته يقول :

- « متأخر جدًّا .. لقد جاءنا متأخرًا جدًّا .. »

ابتعدوا .. بروم ! الصدمة الكهربية تمرُّ فى جسد المريض فينتفض لكن دون نتيجة ملحوظة .. ابتعدوا .. بروم !

ـ « لقد فقدناه يا دكتور .. »

قالتها الممرضة فى يأس .. وشعرت أنا بصدقها .. تبًّا ! لشدَ ما أكره هذا المشهد اللعين .. لكنه يحدث دائمًا ولا مفرَ منه ..

فى النهاية نهضت لاهثًا منهكًا ..

ومشيت فى تؤدة نحو الأستاذ .. رمقنى فى شفقة مصطنعة وقال :

ـ « أنت محارب عنيد .. لكنك لا تقبل الهزيمة .. »

لم أردَ لأننى كنت مغتاظًا كدأبى كلما رأيت الموت ..

تقول الأسطورة المجرية إن الموت تبنى طفلاً .. وعلَمه حتى صار طبيبًا نابهًا .. ثم قال له إن سرَ المهنة يكمن فى موضع الموت من فراش المريض .. إذا وقف عند رأسه فالمريض ميت لا محالة ، ولا داعى لإضاعة الوقت معه .. ولن يرى هذا المشهد أحد سوى الطبيب ..

وجاء يوم مرضت فيه ابنة الملك فاستدعوا طبيبنا لعلاجها .. فما إن دخل غرفتها حتى وجد الموت يتجه ليقف عند رأس الفراش .. وكانت الأميرة حسناء لم يحتمل الطبيب فكرة موتها ، لهذا أمر الخدم بتدوير الفراش بسرعة لتصير رأسه عند قدميه والعكس ..

حاول الموت إعادة الكرَة .. لكن الخدم دوّروا الفراش ثانية .. وهكذا مرّ الليل فى عملية تدوير الفراش مئات المرات ، لمنع الموت من الوقوف عند رأسه .. وفى النهاية يئس الموت وانصرف غاضبًا .....

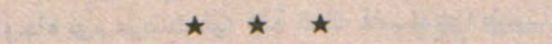
لكم أتمنى لو استطعت تدوير أسرّة كل المرضى فى كل مكان .. حتى لو زودتها بمحرّك كالذى يضعونه فى غرف النوم فى معارض الموبيليا ..

قال لى البروفسور (شِلْبى) :

– « أرجو أن ترسل جثته للتشريح .. فنحن سنعرف أكثر ونزداد حكمة ..

ثم تأهب للانصراف ، ولم ينس أن يقول :

– « اغسل وجهك واستحم .. يا للفوضى ! تبدو لى كأنك قد استحممت من فورك فى بركة دماء ! »



٦ - الوباء يتحرك فى الظلام ..

كانت الفوضى فى كل صوب .. والدماء تغطى كل شىء ..

★ ★ ★

أصدر جهاز (الفاكس) أزيزه الموسيقى المألوف .. ثم انسابت ثلاث لفافات ورقية من الجهاز ، سرعان ما تكورت حول نفسها وسقطت على (الموكيت) فى مكتب المدير ..

لا بد أن هذا حدث منذ ثلاثة أيام .. وبالتأكيد حدث فى ظلام الليل .. لأن أحدًا لم ير هذه الأوراق وقتها ، وما كان ليراها بعد ذلك ..

العاملة الجديدة (كولا) رأتها بالتأكيد ، وكانت من قبيلة لا ترى هذه الأشياء كثيرًا لهذا بدت عليها الدهشة .. إن أحدًا لم يخبرها بكنه هذا الجهاز .. ولم يقل لها أحد ألا تتخلص من تلكم اللفافات التى تسقط على الأرض ليلاً ..

لا بد أنها قالت شيئًا ما عن (الغرائب التى يراها المرء ليل نهار) ثم حملت الأوراق فى المجرفة .. وأغلقت مكتب المدير بالمفتاح وانصرفت ..

★ ★ ★

كانت اللفافات تحمل جميعًا عبارة WHO فى الركن الأيسر العلوى .. وبدا هذا مضحكًا بالنسبة لـ (دايبللا) عامل النظافة الذى كان يفرغ القمامة(★) ..

كان يعرف بعض الإنجليزية لهذا لم يفهم سرّ بدء المراسلات بلفظة (من ؟) .. ووجد فى منتصف الصفحة العلوى بخط غليظ واضح كلمة Absolute priority .. فلم يفهم معناها ..

راح يحرّك شفتيه محاولاً نطق الكلمة :

ـ « أبسولوت بريـ .. بريوريتى .. أبسوليوت برايورتى .. »

ثم غمغم وهو يفرغ سلة القمامة فى الصفيحة الكبرى :

ـ « ولكن ما معنى هذا بحق الأرواح ؟ »

★ ★ ★

(★) التشابه بين WHO أو (من ؟) ، والحروف الأولى من اسم منظمة الصحة العالمية ..

أولوية مطلقة !

أولويــة مطلقــة لأنبــاء الوبــاء الــذى بــدأ يظهــر شمال (الكاميرون) .. أو ـ بعبارة أدق ـ بينها وبين تشاد) ..

وكانت برقيــات منظمــة الصحــة العالميــة والـ CDC تنهمر على وزارات الصحة فى عدة بلدان إفريقيــة .. لكن إهمالاً بسيطًا أدى إلى أن تكون وحدة (سافارى) آخر من يعلم ..

إهمـال بسيط لكنــه جعلنــا نتصـرف دون حــذر .. ووجدنـا حلولاً سـهلة لألغاز شـديدة الغمـوض وقنعنـا بها ..

إن وزارة الصحــة فــى (الكــاميرون) لــم تخطــر (سافارى) بشىء .. وهـذا ديدن السلطات الإفريقيـة التـى تتحفظ تجـاه أنبـاء الأوبئـة ، وتشـعر دومًـا أنهـا محاولة أجنبية لإظهار عدم الاستقرار الداخلى ..

وفى (سافارى) لم نكن قـد رأينـا سوى المريض الذى كلمتكم عنه فى الصفحات الماضيـة .. لهذا لم يبد لنا الأمر كظاهرة ..

★ ★ ★

كنت قد انتهيت من نوبتجيتى ، فقررت ـ على سبيل المرح ـ أن أهبط إلى المشرحة لأرى ما انتهى إليه فحص مريضنا الإفريقى إياه ..

كنت أمقت (شِلْبى) لكن احترامى لعلمه لا ينتهى .. وقد أردت أن أرى ليطمئن قلبى لا أكثر ، وأزداد احترامًا على احترام ..

إن المشرحة فى وحدة (سافارى) جديرة بلقبها .. فهى تقع فى الطابق الأرضى تقود إليها مجموعة ممرات كئيبة خافتة الإضاءة ، تفوح برائحة المطهرات ..

ولم أكن أحب أن أزور هذا المكان كثيرًا .. من ناحية لأنه يذكرنى بفشل الطب فى أداء الغرض منه .. ومن ناحية أخرى لأننى كنت ألقى الأخ (ديفيد جيديون) وهو يهودى أكثر من الحاخامات أنفسهم .. ولم يكن بيننا أىّ استلطاف أو قصص حبّ ملتهبة ..

لكنه ـ والشهادة لله ـ كان بارعًا فى علمه ككل من يعمل فى (سافارى) .. ومن الممكن أن أفيد منه .. لهذا كنت أتعامل معه بمنطق من يتعامل مع الأفعى ليستخلص الترياق من سمها ..

كان جالسًا هنـاك فى صالـة التشـريح يدوّن بعض ملاحظات فى (بلوك نوت) صغير ..

كان ملتحيًا وله أنف معقوف من الأنوف إياها ، وله عينـان شديدتـا الزرقـة يداريهمـا ـ منعًا للحسد ـ وراء عوينات بلا إطار ..

وكـان يرشـف القهوة بيده اليسـرى العاريـة مـن القفازات ، بينما يده اليمنى فى قفازها تخط ملاحظاته ..

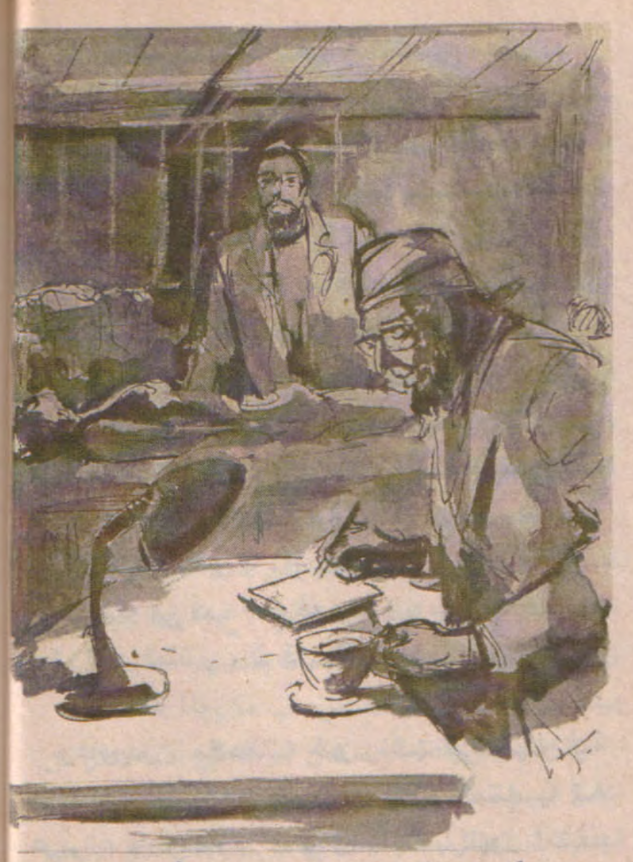
وعلى منضدة التشريح وجدت المريض أو ما تبقـى منه .. فلم تعد ثمة أحشاء داخله .. وكان البنكرياس فى دلو على الأرض ، بينما الكبد والطحـال علـى كفـة ميزان صغير كأنما عملية بيع توشك أن تتم ..

ـ « مساء الخير يا د.(جيديون) .. »

قلتها له فى أدب .. فرفع وجهه يرمقنى بعينيه من فوق إطار المنظار ، ثم قال بصوته الجهورى :

ـ « مساء ! »

وعاد يدوّن ملاحظاتـه غير راغب فـى إظهـار أيـة مودة تجاه ذلك الـذى يحـاول أن يتعلـم ؛ متناسيًا أنـه عربى .. بل ومصرى .. بل ومسلم ! يا للهول ! كيف يجرؤ على هذا ؟!



وعاد يدوّن ملاحظاته غير راغب فى إظهار أية مودة تجاه ذلك الذى يحاول أن يتعلم ..

سألته محاولاً ابتلاع عدائيتى :

- « ما هو رأيك فى هذه الحالة ؟ »

رشف القهوة .. وعاد يدوّن خواطره .. وغمغم :

- « لم أنته بعد .. لقد أخذت بعض عينات الأنسجة للفحص الباثولوجى .. ولسوف تكون عندى فكرة جيدة غدًا .. »

- « هل يوحى لك بلدغ أفعى ؟ »

- « من قال هذا الهراء ؟ »

قالها دون أن ينظر لى .. فقلت بسرعة :

- « بروفسور (شِلبى) .. »

- « هراء .. لا يوجد سمّ أفعى بهذه القوة .. لقد وجدت نزفًا فى كل الأعضاء الداخلية وتحت الجلد .. وإننى لراغب فى إجراء تحليل للبحث عن الفيروسات .. »

ربّاه ! احتمال آخر لم يخطر لى قط ..

سألته فى حيرة وأنا أرمق الجثة :

- « فيروسات ؟ هل تعنى الفيروسات النزفية ؟ »

- « طبعًا .. لقد رأيت هذا المنظر فقط فى ضحايا فيروس (إيبولا) وفيروس (الكونغو - القرم) - وصدقنى لا يوجد شىء آخر يمكن أن يسبب بركة الدم هذه .. »

- « ولكن .. بروفسور (شِلبى) .. أستاذ طب المناطق الحا... »

ابتسم فى تهكم والتمعت أسنانه البيضاء الناصعة ، وقال :

- « حتى (هومير) يحنى رأسه .. ألم تسمع بهذا المثل ؟ »

إنه لا يعلم .. هذا المثل هو ما منعنى من الموت بعد موضوع (عفاف) إياه .. قلت له فى صدق :

- « بلى .. سمعت .. »

- « إن الكوليرا - على سبيل المثال - عسيرة التشخيص جدًا على أول طبيب يراها .. وكذلك الطاعون .. فى الغالب ستُشخص الأولى كمجرد حالة إسهال ، ويُشخص الثانى كخرَاج فى أعلى الفخذ .. فقط حين ينتشر المرض ويتخذ صورة وباء يغدو التشخيص واضحًا لكل طفل .. والطبيب الذى يرى أول حالة حمى نزفية لا يميزها غالبًا .. سيظن أنها أى شىء سوى ما هى عليه .. »

- « ولكن منظمة الصحة العالمية لم ...... »

وضع قدح القهوة على المنضدة .. وقال فى سأم :

ـ « إما أن تكون هذه هى الحالة الأولى حقًا ..
وإما أن يكون هناك خلل فى النظام الوقائى هاهنا ..
وهذا شىء معتاد .. »

ـ « ولكن .. معنى هذا أن الخطر داهم علينا .. »

ـ « طبعًا .. »

ـ « لم نتخذ أية احتياطات فى وقاية أنفسنا أو عزل المريض أو التخلص من إفرازاته .. أو ..... »

ونظرت إلى قدح القهوة الذى فرغ منه .. وأردفت :

ـ « أو عزل عملية التشريح ..... »

ـ « لا بد من أن يخاطر أحد .. »

ثم أردف وهو يتثاءب :

ـ « سأنهى تقريرى وأعطى ملاحظاتى .. فلو كان هذا هو (إيبولا) أو (لاسا) ، يمكننا جميعًا أن نتبادل عبارات الوداع .. »

وعاد يكتب معلنًا تجاهله التام لى ..

وغادرت المشرحة شاعرًا بدوار تام يبلبل فكرى ..

★ ★ ★

تمتاز وحدة (سافارى) بمكتبة بديعة من نوعها تحوى الأقدم والأحدث من المراجع الطبية والدوريات ..

وقد قصدت إلى هناك أبحث عن مرجع مناسب يتحدث عن الحميات النزفية ..

ويبدو أننى قضيت ساعة أو أكثر معزولاً عن العالم، غارقًا فى عالم هذه الأوبئة المريعة ..

إن نزف الدم لشىء مخيف حين يكون هناك جرح .. لكن الأكثر إفزاعًا هو نزف الدم غير المصحوب بجرح !

تشترك الحميات النزفية جميعًا فى أن لها فترة حضانة متقاربة .. وكلها تبدأ بفترة من الأعراض غير المميزة التى يحسبها الجميع إنفلونزا عادية .. حمى .. صداع .. ألم فى العضلات .. احتقان فى العينين ..

ثم يبدأ النزف فى اليوم الرابع .. ويكون عنيفًا شرسًا يؤدى إلى وفاة المريض بسرعة غير مسبوقة ..

وتنتقل الحميات النزفية عن طريق الحشرات كالبعوض والبق .. أو عن طريق بول القوارض والوطاويط .. أو عن طريق التعامل مع المرضى واستنشاق الهواء الملوث أو الغبار الملوث ..

وقرأت عن تجارب (والتر ريد) الشجاعة مع

الحمى الصفراء فى أمريكا الجنوبية ، ولم أصدق ما قرأت ..

لقد كانت الحمى الصفراء تجتاح البلاد ، ولم يكن من الممكن النجاة منها .. إن هى إلا أيام ويصاب المريض بالصفراء ويقىء الدم وعصارة الكبد وتتوقف كليته عن العمل .. ويموت حتمًا ..

ولم يكن أحد يعرف شيئًا عن فيروس المرض ولا كيفية انتقاله .. فقط كان الأهالى يتحدثون عن (بعوضة ما) ..

قام (والتر ريد) بانتخاب مجموعتين من الجنود الأمريكان الأصحاء وجعل المجموعة الأولى تقضى أسبوعًا فى كوخ نظيف صحى لكن نوافذه مفتوحة تسمح بدخول البعوض ..

أما المجموعة البائسة الثانية فاختار لها أن تقضى أسبوعًا فى ألعن مكان يمكن التفكير فيه .. بنى لهم كوخًا قذرًا .. بعثر فيه ذات الغبار الذى كان فى عنابر مرضى الحمى الصفراء .. جعلهم ينامون على ملاءات ملوثة بقىء ودماء من ماتوا بالحمى الصفراء .. حتى الستائر كانت ملوثة .. وأدوات المائدة

هى ذات الأدوات التى كـان الموتـى يستعملونها وقت الاحتضار ! لكنه منحهم كوخًا معزولاً عن البعوض ..

(آسف للآنسات على كلامى .. لكـن هذا هو أرق وصف أحكى به تلك التجربة غير العادية) ..

وبعد أسبوع فتح (ريد) الكوخين .. فماذا وجد ؟

(مجموعة الكوخ النظيف والبعوض) مرض ثلاثة منها بالحمى الصفراء .. ومات اثنان منهم ..

(مجموعة الكوخ القذر بلا بعوض) ظلت سليمة تمامًا ..

النتيجة مقنعة .. البعوض ينقل الحمى الصفراء ..

لكن (ريد) لم يقتنع بهذه النتائج .. من أدراه أن أفراد (مجموعة الكوخ القذر - بلا بعوض) لم يكونوا محصنين ضد المرض لأسباب طبيعية ؟

وهكذا جعل البعوض يلدغهم ليتأكد .. وسرَّه أن اثنين منهم قد أصابهما المرض على الفور وماتا !

ولم يهدأ بالاً حتى لدغ نفسه بالبعوض ليزداد يقينًا .. وسرَّه أكثر أنه أصيب بالحمى الصفراء ونجا بأعجوبة ..

وهكذا أعلن للعالم أن الحمى الصفراء تنتقل بالبعوض .. وأن إبادة البعوض هى الخطوة الأهم فى إزالة المرض ..

وقد كان .. وانحسر الوباء من أمريكا الجنوبية ..
شيطان العلم !

★ ★ ★

شممت العطر الرقيق يفسح لنفسه مكانًا فى القاعة
قبل مجيئها ، كما يحدث فى إعلان التلفزيون عن
مزيل العرق الذى لن أذكر اسمه ..
رفعت رأسى فرأيت (برنادت) بمعطفها الأبيض
كالثلج تقف أمام رفوف الكتب ، تبحث عن شىء ما ..
والتقت عينانا فكورت أنفها مداعبة بالطريقة التى
نسميها فى مصر (تشنيكة) ، وهى أسلوبها الرسمى
فى التحية :

ـ « هاى .. »

ـ « هاى .. »

وللمرة الثانية شعرت بتلك الدبابيس فى حلقى ..
يبدو أننى أصبت ببرد خفيف ..
رأيتها تجذب مرجعًا فى علم الأطفال ، فتفتحه وهى
واقفة .. وراحت تهمهم بسرعة مع السطور شأن من
يريد معرفة معلومة سريعة .. ثم هتفت كأنما تكلم
نفسها :

- « حقًا .. لا (دنج) فى إفريقيا .. »
قلت وأنا أشعر بأننى عليم بالموضوع :
- « بل هناك (دنج) فى إفريقيا .. لكن حمى (الدنج) النزفية غير موجودة فيها .. ما سر اهتمامك بهذا ؟ »
- « إنها تلك الطفلة الصغيرة .. ربّاه ! لماذا ينزف الأطفال بهذه الغزارة ؟ »
ونظرت لها فى حيرة .. وتصلّبت عضلات فكى ..

★ ★ ★

٧ - إنـــه هنـــا !

لقد تثاءب فى مكان ما من أحراش (إفريقيا) ، ثم بدأ يتحرّك فى بطء لكنه فى ثقة ..

كان يعرف ما ينبغى عمله ..

★ ★ ★

فى الصبـاح قطعت علينـا أعمالنـا إشـارة استدعاء عاجلة من مكتب المدير .. ولم نكن نتعامل مع أجهزة فى نطاق ثيابنا ، بل مـع صفـارة مدويـة مـن مكبرات الصوت يعقبها صوت رخيم أنثوى يقول بالفرنسية :

- « على الأطباء أن يتواجدوا فى قاعة المحاضرات خلال عشر دقائق من الآن .. »

وعرفت علـى الفـور أن الاستدعاء خـاص بحـالات الحمى النزفية التى بلغ عددها ثلاثًا حتى الصباح ..

وهرعنـا إلـى الطـابق الثـانى وهـو يقـع فـى الضلـع القصير من حرف (L) كما سبق أن قلت لكم ..

وقاعـة المحـاضرات أو الـ (تيـوتور) فاخرة جدًا ،

مبطنة بمادة عازلة للصوت ، وتتسع لثلاثمائة فرد ..
وبها مقاعد وثيرة وأجهزة ترجمة وثلاث شاشات
للعرض .. باختصار تذكرنى بقاعات المؤتمرات التى
نراها فى نشرات الأخبار فى الأمم المتحدة ..

ولم نكن نستعملها إلا وقت المصائب .. فهى أكبر
من أن يتم استخدامها للمحاضرات التثقيفية
الأسبوعية ، أو مناقشة الحالات العسيرة ..

بدأ الأطباء يجيئون من كل صوب وحدب ..

محادثات بالإنجليزية .. بالفرنسية .. بالإيطالية ..
باليابانية .. لكن الفرنسية هى اللغة الأولى المسيطرة
على المكان .. ويؤسفنى أننى لا أجد من أحدثه
بالعربية سوى نفسى ..

ومن الممر هتفت (برنادت) فى حيوية :

- « هاى (علاء) ! هل المقعد بجوارك محجوز ؟ »

قلت وأنا أرفع حاجياتى من عليه :

- « بتاتًا .. أو لنقل إننى حجزته لك .. »

وهنا أصارح القارئ بسرّ صغير أعرف أنه لن
يتسرب ..

أنا أهيم حبًا بـ (برنادت) .. ولماذا لا أخبرها ؟

لأننى أخشى أن أفقدها .. فهى تميل إلىّ لأننى الوحيد الذى لم يخبرها كم هى فاتنة .. ربما هى وجدت فىّ صديقًا تستريح إليه وسيزعجها ـ حتمًا ـ أن تعرف أن صداقتها شىء لا يسرّنى ..

إن المرأة الحسناء تجد عواطف الرجال الذين لا تميل إليهم شيئًا لزجًا مزعجًا كالذباب .. شيئًا يحيل حياتها جحيمًا ..

وأنا أحب (برنادت) لهذا لن أحيل حياتها جحيمًا ..

ـ « فيم شرودك ؟ »

ـ « أتساءل عن سبب هذا الاستدعاء .. »

ورأينا البروفسور (بارتليه) يتدحرج ككرة الشحم نحو المنصة .. والعرق يسيل على جبينه .. وكان (جيديون) يتبعه بمسافة معقولة ..

وقف يلهث بعض الوقت .. ثم قرب شفتيه من الميكروفون وقال بالفرنسية :

ـ « كيف حالكم هناك ؟ »

لم يضحك أحد .. ولم يتوقف هو عند افتتاحيته المرحة ، قال على الفور وهو يتأمل بعض الأوراق فى يده :

- « إننا نواجه مشكلة غير مسبوقة أيها السيدات والسادة .. لقد قرأت بعض تقارير (الباثولوجى) التى أعدَها لنا البروفسور (جيديون) ، مع نتائج معمل الفيروسات الذى أشرف عليه .. ثم طلبت من بروفسور (هانز شيفرن) أن يجرى بعض الاختبارات المصلية .. إن وحدة (سافارى) تواجه أول صدام لها مع الفيروسات النزفية .. وأعتقد أن تلوثًا عامًا قد حدث هاهنا .. »

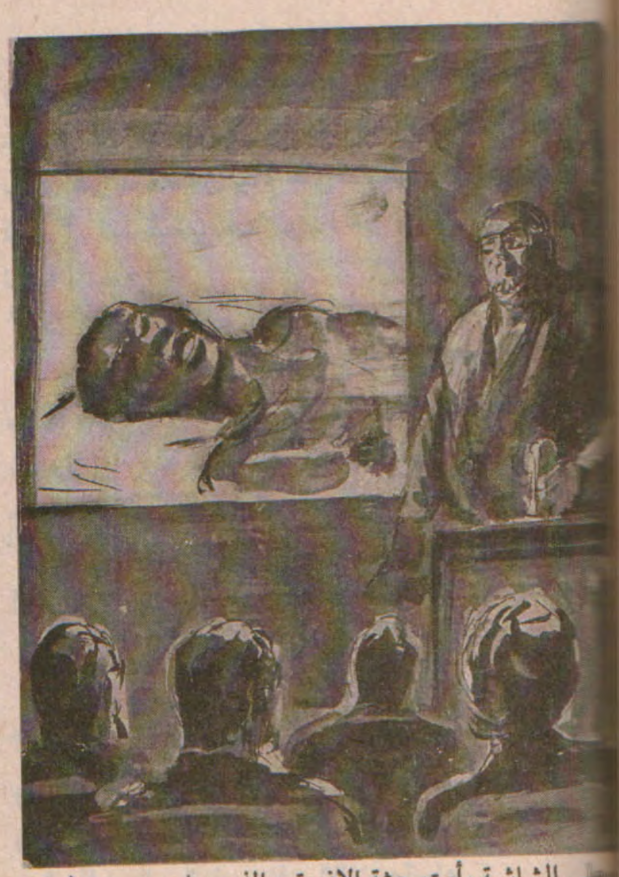
ثم أشار إلى المقصورة الموجودة خلفنا فساد الظلام ..

بعدها بدأ هدير آلة العرض السينمائى ..

وعلى الشاشة رأيت جثة الإفريقى الذى مات معى منذ يوم أو أكثر .. لقد تم التقاط الصور فى المشرحة ..

وسمعت صوت (جيديون) الجهورى يقول بفرنسية سيئة :

- « هذا الرجل من قبائل (الباتتو) قد جاء مستشفانا منذ ست وثلاثين ساعة .. الأعراض حمى وألم عظام ونزف عام ..



على الشاشة رأيت جثة الإفريقى الذى مات معى منذ يوم أو أكثر .. لقد تم التقاط الصور فى المشرحة ..

تدهـور فـى سـرعة الـنزف والتجلـط ونسـبة (الفيبرين) .. عدد الصفائح قليل جدًا .. زيادة فى حجم الخلايا المحزومة .. صدمة عامة .. تم علاجه بشكل غير متخصص بناء على تشخيص مبدئى غير دقيق .. التشخيص بعد الوفاة هو : حمى فيروسية نزفية .. »

هنا التقط (بارتليه) خيط الكلام ليقول :

ـ « لقد تمكنا من استزراع الفيروس مبدئيًا فى جنين الدجاج .. الدلائل الأولى تقول إنه فيروس (إيبولا) .. ولو كان هذا صحيحًا فإن كل فرد هنا معرض لخطر داهم .. »

وعلى الشاشة ظهر جسم شرير بللورى الشكل ، أقرب إلى خيط له براعم عديدة ..

قال (بارتليه) :

ـ « هذه هى الصور الأولى للفيروس بالميكروسكوب الإلكترونى .. إنه حتمًا ينتمى للفيروسات الخيوطية ، وله نفس الأجسام المضادة فى المصل لكننا غير واثقين بعد .. »

ثم أشار إلى الجلوس فى الظلام وتساءل :

ـ « هل د. (مايرز) هاهنا ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « نحن بحاجة إلى خبراتك فى الطب الوقائى .. نريد أولاً معرفة مدى تلوث وحدة (سافارى) . ثانيًا نريد البدء فى دراسة وبائية المرض .. »

نهض د.(مايرز) الألمانى من مقعده .. وسأل الرئيس :

ـ « لماذا لم تخطرنا منظمة الصحة العالمية أو وزارة الصحة هاهنا ؟ »

ـ « لأن التنسيق معدوم ، وعلينا أن نتصرّف وحدنا .. »

ـ « هل توجد تقارير عن حالات مماثلة ؟ »

ـ « إن المشكلة أكبر مما نتصوّر .. ويبدو أن هناك ثلاثمائة حالة فى شمال البلاد ! »

تصاعدت صفارات الدهشة .. وتوتر الجميع ..

ـ « كم حالة رأتها الوحدة ؟ »

ـ « ثلاث حالات هلكت جميعًا فى غضون عشر ساعات من دخولها الوحدة .. »

هتف (مايرز) غير مصدق :

- « مستحيل ! الـ (إيبولا) لا يتصرَف بهذه الشراسة .. ما رأى البروفسور (آرثر شِلْبى) فى هذا ؟ »

أضيئت الأنوار .. فرحنا نضيق عيوننا عاجزين عن فتحها .. ونظرت إلى المقاعد الأمامية فرأيت (شِلْبى) - بكسر الشين وتسكين اللام .. جالسًا فى (ألاطة) كعهدى به .. والسيجار فى يده .. ترى أىَ حرج يشعر به بعد فشل تشخيصه العبقرى ؟ لا بد أنه يقول لنفسه :

« حتى (هومير) يحنى رأسه .. »

شعرت بتشفٍ خبيث وانتظرت سماع ردَه ..

قال بالفرنسية اللعينة التى لا يجيد خيرًا منها :

- « نعم .. الـ (إيبولا) أبطأ من هذا .. وكذا (ماربورج) و (لاسا) .. »

سأله الرئيس من فوق المنصة :

- « يقولون إنك رأيت إحدى الحالات يا بروفسور .. »

قال فى وقار :

- « نعم .. إنه صديقنا المصرى الشاب قد طلب رأيى .. وكانت الحالة متدهورة جدًا .. لكننى طلبت

منه ألا يبذل مزيدًا من الجهد حتى لا يتعرض للعدوى ..
لقد كانت الحميات النزفية فى ذهنى دائمًا .. »

يا للصفاقة ! هذا هو أسلوب (جوبلز) وزير دعاية (هتلر) الشهير : اكذب كذبة كبيرة وبلا تردد .. سيصدقها الناس جميعًا ولن يجرؤ أحد على الشك ..

من يصدقنى أنا الشاب الغرير لو قلت لهم إن الأستاذ الأمريكى قد ارتكب خطأ فاحشًا ؟ ولو قلتها وصدقونى لقالوا لى : « حتى (هومير) يحنى رأسه » وحتى الأساتذة يخطئون أحيانًا ..

نعم .. الأساتذة ـ كما أفهمهم ـ يخطئون لكنهم لا يكذبون ..

هنا نهض (مايرز) وقال فى حسم :

ـ « سيدى الرئيس .. أرجو أن يسمح لى بعزل كل من تعامل مع المرضى .. فهذه هى خطوتنا الأولى .. »

ثم أشار إلى البروفسور (شِلْبى) باسمًا :

ـ « وأنت أولهم يا سيدى .. »

ابتسم (شِلبى) فى تواضع وقال :

ـ « العلم هو العلم يا سيدى .. وإننى لأخضع له فى رضا .. »

قال الرئيس فى مكبر الصوت وهو يتأمل الأوراق :

ـ « حسن .. يمكننا أن نضمَ إلى القائمة أسماء د.(برنادت جونز) .. د. (علاء عبد العظيم) .. د.(إبراهام ليفى) .. الممرضة (ساروار موستكا) .. الممرض (بودرجا) .. وسنرى من يستجدّ .. »

يا نهار أسود ! عزل ؟ ومع من ؟ مع (إبراهام ليفى) ؟

إننى بالتأكيد أفضل قضاء الوقت مع عشرة وطاويط مصاصة دماء وثعبان وفأرين .. فهم ـ على الأقل ـ خصوم شرفاء ..

لكن قوانين (سافارى) صارمة كأية قوانين أخرى ..

علينا أن نخضع .. وأمرنا للّه ..

هنا نهضت مسز (مارجريت أرشيبالد) المشرفة الإسكتلندية على التمريض .. وهى شمطاء صارمة كناظرات المدارس ، وقالت فى لهجة مسرحية :

ـ « سيدى الرئيس .. إن (ساروار) تحتاج إلى معزل خاص بها .. »

- « وما هو السبب ؟ »

- « إن حالتها على غير ما يرام اليوم .. »

ثم هتفت فى لهجة منتصرة :

- « إن حرارتهـا مرتفعـة وحلقهـا ملتهـب وعينيهـا حمراوان .. ويبدو أن أنفها ينزف أكثر من اللازم ! »

★ ★ ★

٨ ـ فى المعـــزل ..

فـى الســابعة مســاء توفيـت الممرضــة الفليبينيــة (ساروار) ..

كان هناك كثير من النزف والهلاوس والصراخ .. لكن الأمر انتهى سريعًا .. وطبقًا للشهود يمكن القول إن المـدة مـن بدايـة مرضها حتـى وفاتهـا اسـتغرقت عشرين ساعة لا أكثر ..

★ ★ ★

ـ « مستحيل ! »

ـ « فترة الحضانة لم تتجاوز يومين .. »

ـ « وفترة المرض لم تتجاوز يومًا ! »

ـ « ليس هذا الـ (إيبولا) .. »

ـ « وليس أى فيروس نزفى سمعنا عنه .. »

★ ★ ★

وبدا واضحًا فى الوجـوه أن مجموعتنـا التـى انضم إليها (ديفيد جيديـون) تضـم مجموعـة مـن الأشباح الذين انتهى أمرهم ..

وبناء على تعليمات مدير الوحدة تمَ تعميم الأمر (خطر حيوى من المستوى الرابع) .. والمستوى الرابع هو اسم سعيد لم يُطلق إلاّ على أوبئة قليلة شرسة فى فتكها وسرعة انتشارها .. وقد كان الـ (إيبولا) و (ماربورج) من أهم الفيروسات التى تقرت بالمستوى الرابع ..

وبناء على هذا الأمر تمَ توزيع الثياب التى تشبه ثياب رواد الفضاء على فريق العمل ، وتمَ عمل تطهير لغرف المستشفى بالأشعة فوق البنفسجية .. ومحلول الـ (جلوتارالدهايد) ..

أما نحن - بذور المرض - فتم نقلنا إلى المعزل ..

والمعزل لا يشبه غرفة الفئران فى شىء .. فهو مكان فاخر معدَ بكافة سبل الراحة وبه قاعة طعام ، وجهاز تلفزيون متصل بالأقمار الصناعية ، وتكييف ، وكل لوازم التسلية .. وبه أربع غرف مؤثثة جيدًا ..

كل شىء متاح إلا الحرية .. الحرية التى وعدونا بمنحها لنا خلال أسبوعين من الفحوص والبحوث المعملية ..

وكان تقسيم الحالات على الغرف سهلاً ..

(برنـادت) فى حجـرة وحدهـا ـ طبعًا ـ بينمـا يقيم البروفسور العظيم (آرثر شِلبى) مع (ديفيد جيديـون) فى حجرة أخرى .. إنه لقاء السحاب كما يقولون بيـن طب المناطق الحارة وعلم الأمراض ..

ثم من المفترض أن أقيم أنا مع (ليفى) فى غرفـة واحدة .. لكنى رفضت فى شمم وأصررت على الإقامة مع الممرض (بودرجا) فى غرفة واحدة ..

ـ « معاد للسامية ! »

قالها (ديفيد جيديون) فـى اشـمئزاز .. فقلـت بـلا مبالاة :

ـ « بل معاد للإسرائيلية .. هذا من حقى .. »

وعرفت أن (ليفى) قد تعرّض للعدوى حين فحص حالة من (العيـون التـى تسيل دمًـا) .. فقـد افتـرض الأهالى أنها حالـة مـن أمـراض العيـون .. ويبـدو أنـه لمس المريض وشمّ قدرًا لا بأس به من أنفاسه ..

إننى معرض للموت .. وهذه الأشواك فى حلقى قـد تقول وقد لا تقول أشياء كثيرة .. لكنى سعيد .. سعيد ..

إننـى ـ بأمر رئيس الوحدة ـ سجيـن مـع ألطـف مخلـوق فى الوجـود .. كـلا .. لا أتحدث عن الممرض

الكاميرونى (بودرجا) بالطبع .. وإنما أتحدث عن (برنادت) الطبيبة الكندية الحسناء ..

ربما كانت ساعات قصيرة .. لكنها أشبه بوجبة العشاء السخية التى يقدمونها للمحكوم عليهم بالإعدام ..

★ ★ ★

وفى المساء زارنا المدير فى سجننا ..

ولم أكن قد عرفت أن الأمور بهذا السوء حتى رأيته ومن معه ، فهم يرتدون ثياب رواد الفضاء الواسعة الفضفاضة .. ويتحدثون من وراء نافذة من البلاستيك فى وجوههم .. وأراهن أن هذه الثياب سيتم تعقيمها بالليزر بعد ترك المكان ..

المستوى الرابع ! ربَاه ! ليس مزاحًا بالتأكيد ..

- « كيف حالكم ؟ »

- « بخير .. لم يمت أحد للأسف .. »

ضحك فى عصبية .. ثم سألنا عن أية أعراض جديدة ..

لم يكن هذا سوى سؤال عابر ، فهم يأتون لنا كل يوم صباحًا ليملئوا عشرات النماذج ، ويأخذوا عينات من بولنا ودمنا ومسحات من حلوقنا ويرغمونا على البصق فى أطباق (بترى) ..

قال لنا المدير :

- « إن الأمور تـزداد سوءًا بالخـارج .. ويبـدو أن معدلات الوفـاة ٩٧ ٪ أو أعلـى قليـلاً .. هنــاك قـرى بأكملهـا تعـانى المـرض ، وقـد اضطررنــا للاسـتعانة بقوات الجيش لحصارها .. حتى لا يتركها الأهالى .. »

سألته :

- « وما هى الأخبار فى (ياوندي) العاصمة ؟ »

- « قلق عام .. وقد تحولت إلى مركز كبير لمنظمة الصحة العالمية .. »

الحق أن الأمر أخطر بمراحل من (الإيدز) ..

إن (الإيدز) مرض شرس لكنك بشىء من الحيطة والعفة يمكن أن تضمـن ألا يصيبك أبـدًا .. يمكنـك أن تقول فى ثقة : أنا لـن أموت بفعل (الإيـدز) وغالبًـا يصح ظنك .. لكن فيروسًا مجهولاً لا يعرف أحد كيفية انتشاره مثل هذا الذى تتكلم عنه ؛ كابوس حقيقى ..

هل ينتقل بالتنفس ؟ هل ينتقل باللمس ؟ هل ؟ هل ؟

هل أنت مصاب به ؟ فلماذا لم تمت بعد ؟

هل هو كامن ينتظر ؟ أم ماذا ؟

قال المدير :

- « لقد وجدنا الفيروس فى دم اثنين منكم .. لكن الأعراض لم تظهر بعد .. لذا لن أزيدهم قلقًا على قلق .. »

وابتسم فى لطف .. وقال :

- « هل من شىء ترغبون فيه ؟ »

قال (بودرجا) فى لهفة :

- « زوجتى .. هلا أبلغتموها أننى بخير ؟ »

- « بلى .. سنفعل يا (بودرجا) .. وثق أنها بخير ما دامت بعيدة .. »

وهزّ رأسه محييًا وانصرف ..

★ ★ ★

وكان اليوم التالى يوم سعد فى تاريخ الفيروسات .. إنه يوم مولد فيروس نزفى جديد يفوق كل ما سبق .. وقد اصطلح على تسميته باسم (كافاموجورو) نسبة إلى الاسم الذى أطلقه (البانتو) عليه .. ومعناه ـ كما قلنا ـ العيون التى تنزف دمًا ..

تمكنت معامل (سافارى) من فصله وتصويره وقياسه ، ويبدو أن (بارتليه) قد صار يرى جائزة (نوبل) فى العلوم الطبية أمام عينيه لو ظل حيًا ..

لكنى لم أشعر بهذه الانتصارات لأننى كنت مريضًا ..
لقد بدأ فيروس (كافاموجورو) يؤثر فى جسدى ..
وحينما دخلت الحمام وشعرت بالغثيان ..
وحينما أفرغت ما بمعدتى فى حوض غسيل الوجه ..
وحينما رأيت الدم الأحمر يلطخ كل شىء ..
عندها عرفت أنها النهاية ..

★ ★ ★

٩ - مريض .. ومرضى !

(عفاف) وآلام صدرها .. كيف لم يخطر هذا ببالى ؟ العالم كله أناس يمسكون بصدورهم ويقولون .. ماذا يقولون ؟ دعهم يقولون .. من قائل هذه العبارة ؟ هل هو (تشرشل) ؟ الملك (فاروق) داعب (تشرشل) فى حفل عشاء وسرق ساعته .. لكن هذا لم يقبل الدعابة .. الكلبتومانيا هى داء السرقة .. لكن (نسرين) تأبى أن أتزوجها .. لم تحبنى قط .. الحاجَة كانت تبكى حين غادرت المنزل .. وقال (أشرف) إن النمور ستلتهم مؤخرتى لكن هذا لم يحدث .. لا يبدو لى أن هناك نمورًا فى (الكاميرون) .. هناك غوريلا وشمبانزى وأفيال وغزال (إمبالا) الجميل ..

(الزولو) شرسون .. لكن لا يوجد (زولو) فى (الكاميرون) .. أستاذ يهودى وطبيب إسرائيلى .. هل هذا معزل أم هو الكنيست ؟ هل (برنادت) يهودية ؟ مصيبة ! لم أسألها قط ولم يخطر لى هذا ببال ..

إنهم يعطوننى دمًا .. يضخون لترات عديدة فى عروقى .. لكنهم لا يعرفون أننى انتهيت .. بالتأكيد انتهيت .. أرى خرطوم (القسطرة) الخارج من جسدى .. إنه ملىء بالدم .. ربّاه ! إننى أنزف !

كل هذه الأقنعة المحيطة بى .. هل هو غزو من المريخ ؟ مستوى رابع .. مستوى رفيع فى الثانوية العامة .. مستوى الماء .. مستوى زيت المحرّك .. مستوى الذكاء .. أنا .....

★ ★ ★

- « إنه فى تحسن .. »

قالها الوجه ذو القناع وهو يقيس لى الحرارة وضغط الدم ..

سمعت الممرضة ذات القناع تقول :

- « تهانينا يا د. (علاء) .. أنت من القلائل الذين فعلوها .. »

قلت بصوت متحشرج كمحرك سيارة بعد ليلة شتاء :

- « أنا أُصبت بالفيروس ؟ »

- « نعم .. ونجوت منه .. »

- « كنت أعرف هذا .. تلك الدبابيس فى حلقى .. »



ـ « إنه فى تحسن .. »

قالها الوجه ذو القناع وهو يقيس لى الحرارة وضغط الدم ..

ـ « لقد ظللت محمومًا أربعة أيام .. وكنت تهذى طيلة الوقت .. »

قال الرجل ذو القناع الذى فهمت من لهجته أنه يابانى :

ـ « أنا (ساتو أوشيمو) .. »

ـ « د. (ساتو) .. لم أتعرفك بهذا القناع المريخى .. »

قال بصوت يبدو أنه يبتسم :

ـ « لقد نزفت لترات عديدة من الدم .. لم نكن نملك سوى حقنك بالدم وفيتامين (ك) و (الإنترفيرون) .. لا ندرى إن كان (الإنترفيرون) صاحب الفضل أم أنت ، لكنك نجوت .. »

ـ « اللّه صاحب الفضل الوحيد .. »

سألنى فى فضول وهو يعدَ نبضى :

ـ « بم تشعر ؟ »

ـ « أشعر كذبابة انتهى من امتصاصها عنكبوت .. »

وأرحت رأسى إلى الوسادة ، ولم أدر كيف غبت عن الوجود ..



قال بروفسور (بارتليه) وهو يجلس جوار فراشى .. القناع على وجهه وصوت الفحيح من جهاز الأكسجين يحجب ما يقول :

- « لقد وجدنا تشابهًا هائلاً - حوالى ٩٥ ٪ - بين الجين الخاص بفيروس (إيبولا) وفيروس (كافاموجورو) .. »

سألته وأنا أحاول استعادة توازنى :

- « هل تعنى أنهما نفس الشىء ؟ »

- « بل أعنى أنهما كانا نفس الشىء ؟ »

- « تعنى حدوث طفرة جينية أدت لجعله أكثر شراسة ؟ »

- « نعم .. وهى طفرة فى قدرته على العدوى وسرعة انقسامه .. وطفرة كهذه لا تتم بهذه السرعة ما لم تكن بفعل فاعل .. هناك من تلاعب بقواعد الهندسة الوراثية الخاصة بالفيروس .. وأنتج هذه السلالة عاتية الشراسة .. »

- « تعنى تجارب حربية لإنتاج سلاح بيولوجى ؟ »

- « نعم .. »

- « ومَنِ الوغد الذى يفعل هذا ؟ »

ابتسم وتراقص الشحم فى خديه ، وهو يقول :

ـ « ما أكثر الأوغاد ! لكن هناك دولتين قادرتين على شىء كهذا .. (فرنسا) و(الولايات المتحدة) .. فلديهما المعامل التى تجعل هذه المهمة هينة .. لو كانت (فرنسا) فى الموضوع لكنت أنا ـ (موريس بارتليه) ـ فى فريق العمل إن لم أكن رئيسه .. »

ـ « إذن تبقى أمامنا (الولايات المتحدة) .. »

ـ « هذا هو ما نبحث عنه .. إن إثباته عسير .. لكن هذا سيجعلنا نعرف كل شىء عن فيروسنا هذا .. ومهمتك البحث سرًا عن الحقيقة .. »

ـ « ولماذا أنا بالذات ؟ »

ـ « لأنك صرت تحمل مناعة دائمة ضد الفيروس .. ويمكنك البحث والتنقيب غير مسجون فى بذلة فضاء كالتى نرتديها .. »

ثم قال بلهجة خطرة :

ـ « مهمتك يا (علاء) هى أن تذهب إلى القرية التى شهدت أول حالة من حالات الفيروس .. حاول أن تفهم كيف بدأ كل شىء .. »

شعرت بأننى فى المشهد الافتتاحى لإحدى حلقات

(المهمة : المستحيل) وتوقعت أن يقول لـى : « هذا القرص سيحترق ذاتيًا بعد عشر ثوان » أو : « لو تـم القبض عليك سننكر أية علاقة لنا بك .. »

لكنه لم يقل .. فقط أردف فى حرج :

ـ « إن ثلاثة من زملائك فى المعزل قد بدءوا يشكون من آلام الحلق منذ ثلاث إلى خمس ساعات .. وأنـت تعرف ما نريده منك .. »

ـ « (برنادت) ؟ هل هى ؟ »

ـ « نعم .. و (ليفى) و (شِلَبى) .. »

هنا فهمت ما يريد منى ..

إن دمى ـ بصفتى شفيت ـ لملىء بالأجسام المضادة للفـيروس .. ومعنـى هـذا أنـه هـو العـلاج الوحيـد المعروف للمرض ..

سيعاملوننى كالحصـان الـذى يستخدم فـى تحضـير الأمصال .. سيقومون بتقييدى واستنزاف دمى ..

ـ « لا بأس .. من أجل (برنادت) .. »

ـ « و (شلبى) و (ليفى) ! »

ـ « لن أعطى قطرة دم واحدة لهذا الشىء .. »

ابتسم فى رقة وقال :

- « حاول أن تسمو فوق الخلافات القومية من أجل الإنسانية .. لقد احتل الألمان وطنى وقتلوا قومى .. واليوم ماذا تبقى من هذا الصراع ؟ لا شىء .. يمكننى أن أتبرع بدمى لألمانى جريح والعكس .. »

- « إن الألمان لا يحتلون وطنك الآن .. ولو منحت دمك لألمانى فى أثناء الحرب لقتلتك المقاومة الفرنسية بتهمة الخيانة العظمى .. »

قال بسهولة غير متوقعة :

- « كما تشاء .. »

ونهض لينصرف ، وكنت أتوقع منه جدلاً أكثر .. النتيجة المنطقية واضحة : سيعطون من دمى لـ(ليفى) برغم كل شىء ، ولن أعرف ذلك أبدًا ..

ليكن .. فأنا لن أمتنع عن التضحية بأى شىء من أجل (برنادت) و (شلبى) الذى هو إنسان برغم خبثه الشديد ..

★ ★ ★

وعند العصر أخذوا منى لترًا من الدم على مرتين .. وهو كمّ كبير من الدمّ .. لكنهم سيستخلصون منه حوالى نصف لتر من البلازما ، يقومون بتنقيته وتخليصه من الشوائب ، ثم يحقنونه للآخرين ..

وبهذا تنتهى مهمتى كعلاج للفيروس ؛ لأنهم لن يستطيعوا أخذ المزيد من دمى قبل ثلاثة أشهر ، مالم يرغبوا فى قتلى ..

وفى المساء ذهبت لزيارة (برنادت) فى حجرتها فى المعزل ..

ربّاه ! شد ما تغيرت !

الكندية الشقراء الحسناء ترقد فى الفراش ، وقد تحول شعرها إلى حزمة كتّان مبعثرة .. وخراطيم تخرج من فمها وأنفها .. وقناة وريدية فى ذراعها .. ومئات الشرائط اللاصقة فى كل مكان ..

وكانت شاحبة كحرباء مذعورة ..

لم أجد ما أقول من كلمات .. فربّت على ذراعها البارد ..

وبطرف عينى لمحت شاشة (المونيتور) فوق رأسها .. النبض (٨٠) الضغط ($\frac{١٠٠}{٦٠}$) .. لا بأس .. إن دمى يؤدى عمله جيدًا .. وتصورت ـ فى حسرة ـ ما تشعر به كرياتى الحمراء وهى تجرى فى عروقها الفاتنة وتدخل قلبها .. إن الدم أكثر حظًا من صاحبه فى أحيان كثيرة ..

قالت هامسة بصوت مبحوح كفرملة شاحنة :

ـ « علمت بما قمت به .. وإننى لأشد .. أشكرك .. »

ـ « أشكرينى على أشياء اختيارية .. أشياء أستطيع أن أرفض عملها .. »

وكتمت جيشان الكلمات الذى راح يحاول جاهدًا أن يخرج ..

وأخيرًا استطعت تحويل جُملة (أنا أحبك بجنون) إلى (قالوا لى إنك تتحسنين) .. ويالـه من مجهود مذهل ! لقد احتشد العرق على جبينى من فرط الجهد ..

قالت لى :

ـ « أنا مدينة لك .. ولكن هل سيطروا على الوباء بعد ؟ »

ـ « إنه فى ذروة نشاطه .. »

إن كل الأوبئة تنتهى بعد فترة إذا تم السيطرة على مصادر انتشارها .. فالمرضى يموتون أو يشفون والجرثومة تضعف ..

لكن من الواضح أننا ما زلنا فى المنحنى الصاعد للوباء ..

★ ★ ★

١٠ـ المهمة : المستحيل ..

يقع إقليم (أداماوا) شمال (الكاميرون) ، وهو أرض جبلية ممتدة تنحدر دون نعومة إلى مجموعة من المستنقعات تفصله عن بحيرة (تشاد) .. والجفاف والتصحّر هما السمة الغالبة على (أداماوا) على عكس باقى (الكاميرون) التى تنعم بالأمطار طيلة العام ..

ولقد راحت السيارة (اللاندروفر) تتخبط عبر طرق شديدة الوعورة وقرى غاية فى الفقر تبعث الكآبة فى النفس ، بينما الشمس الحارقة تشوى أقفيتنا حتى ليوشك البخار أن يتصاعد مع رائحة اللحم المحمّر ..

وكنت أنا فى السيارة مسلحًا بكل ما يلزم طبيبًا فى (إفريقيا) : بندقية ـ كاميرا ـ جهاز كاسيت .. ولا بأس من بعض أجهزة الكشف طبعًا .. جهاز ضغط ـ سماعة ـ ترمومتر ـ أنابيب عينات .. إلخ ..

لم يكن هناك داع للبندقية طبعًا .. فأنا لن أستعملها .. لكن هذه هى تقاليد الطب الإفريقى كما وضعها (ألبرت شفايتزر) ..

وجوارى فى (الجيب) يجلس (بودرجا) الممرض الذى نال جرعةً لا بأس بها من أجسامى المضادة .. ومهمته هى مهمته الدائمة : الترجمةَ عن لغات البانتو والبانتويد والسواحلية .. إلى الفرنسية ..

وبدأنا ندنو من قرية (مزيمبا) ، وهى القريةَ التى تذكر التقارير التى جمعها د. (مايرز) فى دراسته الوبائية أنها موطن الوباء ..

فهنا مات الكثيرون ، ومات ساحرا القبيلةَ اللذان حاولا عمل شىء من أىَ نوع ..

وبدأت أرى عربات الجيش الخضراء .. ورأيت مدرعتين تتحركان فى تؤدةَ نحو القرية ..

وكان هناك حاجز موضوع على الطريق ، ووحدات من الجيش الكاميرونى تقف بجواره ، على حين كانت ألسنة الدخان الأسود تصاعد من بعيد ..

كان الأمر أشبه بكابوس مجسَم ملوَن ..

★ ★ ★

برغم أننى أبرزت بطاقة (سافارى) مرارًا لأكثر من حاجز على حدود القرية ، ولأكثر من جندى كاميرونى صلب الوجه يسدّد مدفعه الرشاش سوفييتى الصنع إلى وجهى ؛ فقد كانت مهمة تفسير وجودنا هنا عسيرة .. وراح (بودرجا) يعيد قصته فى كل مرة عندها يسمح لنا الجندى بالمرور إلى عائق آخر ..

إن هذا الجو العسكرى المتوتر يجعلنى أشعر بتقلص فى معدتى .. وأتصرف بالضبط كأننى شخص مريب .. إن ارتباكى يجعل الجميع يشكون فى أمرى ..

وأخيرًا وجدت بعض روّاد الفضاء .. أعنى الأطباء الذين يرتدون ثياب روّاد الفضاء .. وكانوا يحملون محفة عليها كتلة من الدم أدركت بصعوبة أنه رجل لا يكفّ عن الصراخ والهستيريا ..

كانت هناك خيام يبدو أنهم استخدموها كعنابر ، وفى داخل كل خيمة كان هناك مريض أو اثنان على الأرض ، وقد علّقت لهم المحاليل الوريدية للتنقيط ..

دنا منى أحدهم .. وهتف بالإنجليزية التى دمرتها اللكنة الأمريكية :

ـ « ماذا تفعل هنا يا أحمق ؟ الهواء ذاته ملوّث .. »
الحق أنه كان صادقًا .. فرائحة الموت جلية لا يمكن أن تخطئها ..
ومن حولى تناثرت لافتات التحذير : منطقة وباء .. المستوى الرابع .. كافاموجورو .. الويل لكم .. إلخ ..
قلت للرجل وأنا أبرز أوراقى :
ـ « أنا من وحدة (سافارى) .. ومسئول عن نفسى لأن المفترض أننى أملك مناعة ضد الفيروس .. من أنتم ؟ »
قال وهو يهزّ كتفيه :
ـ « نحن من الـ CDC .. ولا أحد يملك مناعة ضد الفيروس .. »
ـ « من رئيسكم ؟ »
أشار إلى أحد روّاد الفضاء الذى وقف وفى يده لوح كتابة ، وراح يصدر أوامره بالإنجليزية الأمريكية جدًا إلى من حوله ..
أما أوامره فكانت بسيطة جدًا لا تحتاج إلى إلمام بالإنجليزية ..
ثمة حفرة عميقة .. رأيتهم يحملون إليها عشرات

الجثث الغارقة فى دمائها .. جثث زنوج بؤساء .. ثم راح الرجال يرشون عليها محلولاً مطهرًا من خزانات فوق أكتافهم ..

وابتعد الرجال بينما دنا أحدهم ، ومن خزان مماثل على ظهره رأيته يصوّب فوهة قاذف اللهب على الحفرة ..

وسرعان ما تصاعدت النيران .. ومعها الدخان الأسود .. ورائحة اللحم المحترق .. وفهمت سرّ الدخان المخيم على القرية ..

رباه ! إن كل هذا شنيع ..

★ ★ ★

جاء العجوز يتوكأ على عكازه .. وقد رسم الزمن ندوبه على كل سنتيمتر من جلده الأسود كالحبر .. وكان يرتجف هلعًا وشيخوخة ..

قال لى رئيس الرجال الفضائيين وهو ينصرف :

- « خذ وقتك معه .. يبدو أنه لن يصاب بالوباء .. لا بد أن لديه مناعة طبيعية برغم سنه المتقدمة هذه .. »

جلس (كوزونجا) شيخ شيوخ القرية على الأرض ..



جاء العجوز يتوكأ على عكازه .. وقد رسم الزمن ندوبه
على كل سنتيمتر من جلده الأسود كالحبر ..

والرجفة لا تفارقه .. فجلست جواره و (بودرجا) ..
قال الرجل شيئًا ما وهو يمسك رأسه بكلتا يديه ..

- « يقـول إنــه لم يـر هَولاً كهذا طيـلة سنـواته المائة .. »

قالها (بودرجا) مفسرًا بالفرنسية ..

قلت له :

- « اسأله عن بدء المرض .. »

راح يثرثر مع العجوز بضع دقائق .. لغة الإيماءات بليغة جدًا ومعبَرة .. ثمة شـىء راقٍ فـى ملامـح هذا الشيخ مما لا يمكن وصفه .. قطعة من الفن الرفيع .. ولو أنصفت لقلت إن الفن ليس هو الجمال بالضرورة .. الفن هو الإنسانية الصادقة ..

فى النهاية قال (بودرجا) :

- « يقول إن الوباء بدأ مع (جومبا) ذى النعجات الثلاث .. لقد ملأت زوجته القرية صراخًا حين وجدتـه ينزف دمًا دون جرح ..وحـاول الساحر شـفاءه دون جدوى .. بل إن الساحر ذاتـه نـزف دمًا من أحشـائه ومات .. »

- « والزوجة ؟ »
- « ماتت .. »

★ ★ ★

ورحت أستمع إلى كلام فارغ لا نهاية له عن الأحداث الشنيعة المعتادة فى هذه الأوبئة .. مشكلة إفريقيا هى أنها لا تعرف الاستقرار .. دائمًا تلك الأسرة البائسة الخائفة تفرّ بمتاعها القليل من الحرب الأهلية ، فإن لم يكن فمن الوباء ، فإن لم يكن فمن الفيضانات أو الجفاف .. ولا يعرف العالم عنها سوى تلك اللقطة العابرة فى نشرة أخبار التاسعة ..

لكن هذا الحديث يطول وليس المجال مجاله ...

سألت العجوز :

- « هل تعرف شيئًا يتعلق بالبيض ؟ شيئًا حدث قبل الوباء ؟ أو هل غادر (جومبا) القرية لفترة قبل مرضه ؟ »

راح مترجمى ينقل له سؤالى الطويل .. فهزّ هذا رأسه مفكرًا .. يبدو أن هذا الموضوع لم يخطر له ببال ..

بعد هنيهة قال كلامًا كثيرًا ..

بدا الاهتمام على (بودرجا) فراح يستعيده بعض المقاطع .. ثم قال لى :

- « رجل أبيض جاء القرية منذ أسابيع .. معه حقائب كثيرة ويبدو خائفًا .. أمضى يومين معنا ثم فارق القرية .. ولا نعرف إلى أين ذهب .. »

- « اسأله هل فتحوا الحقائب أو عرفوا ما بها ؟ »

عاد يثرثر مع الشيخ بضع دقائق .. ثم قال لى :

- « يقول إنه لا يعرف .. لكن أهل القرية كانوا يرمقونها فى إعجاب .. وكان الجميع ينتظرون الأعاجيب منها .. »

هكذا بدأت خيوط القصة تتضح لى ..

١ - رجل أبيض معه حقيبة تثير خيال القرويين ..

٢ - (جومبا) هو الإفريقى الذى لم يستطع التحكم فى فضوله ..

٣ - (جومبا) يتسلل إلى خيمة الرجل ويسرق الحقيبة ..

٤ - يا للحسرة ! الحقيبة لا تحوى سوى أنبوب اختبار مغلف بالقطن .. لا ذهب .. لا ماس .. لا دولارات ..

٥ ـ (جومبا) يهشم الأنبوب فى غيظ فيتناثر الرذاذ على وجهه ..

٦ ـ فى الصباح ينهض (جومبا) محمومًا ينزف ..

السؤال الآن : أين ذهبت الحقيبة ؟

من المستحيل الإجابة عنه لأن الرجل ـ حتمًا ـ أحسن مداراة كنزه الصغير .. بالتأكيد لم يفتحها فى كوخه ...

وهنا خطرت لى فكرة ..

سألت العجوز عن طريق مترجمى :

ـ « أين كان (جومبا) يرعى نعجاته الثلاث ؟ »

لدقائق يتكلم العجوز .. وهو يشير إلى تل رملى قريب تناثرت عليه بعض النباتات الصحراوية ..

لم أحتج لسماع الترجمة .. إذ رحت أهرول نحو التلّ .. وأتسلقه فى كثير من العناء حتى وصلت لأعلاه ..

ومن فوقه كنت أرى حدود القرية ، وروّاد الفضاء المتناثرين فى كل صوب ، والخيام المنصوبة كعنابر ، وحفرة حرق الموتى ..

مشهد بانورامى جميل جدًا ..

والأجمل منه هو فضلات الماعز أو الخراف المتناثرة ـ لا أعرف الفارق بين نوعى الفضلات للأسف ـ فى لهيب الشمس الحارق ..

جلست على ركبتى .. وتخيلت أننى الفلاح الكاميرونى الفقير (جومبا) ، ومعه حقيبة صغيرة يكاد يجنَ لهفةً على فتحها ، غير عالم أنها تحوى الهلاك ، وأنها صندوق (بندورا) الملىء بالأرواح الشريرة ..

استغرق البحث عشر دقائق ..

وفى النهاية وجدت شظية زجاج رقيقة .. إن شظية كهذه تثير الريبة حقًا .. فلا يمكن أن تكون مهشمة من كوب أو دورق ..

أين يحاول الرجل إخفاء الحقيبة ما دام أخذها فوق التل كى ينفرد بها ؟

بالتأكيد تحت هذه الصخرة .. فلا توجد صخور أخرى ..

رفعتها بكثير من عناء لأجد تحتها فتحة صغيرة ..

كدت أمد يدى بلهفة باحثًا .. لكنى ـ وأشكرها على ظهورها ـ لمحت رءوسًا دقيقة لثعابين تبرز

وتتوارى داخل الفتحة ، وعيونها السوداء ترمقنى فى فضول مستريب ...

هذا هو الدرس التاسع أو العاشر فى إفريقيا : لا تدسَ يدك فى أية فتحة لا تعرف ما بداخلها ، حتى لو كانت فتحة قفازك ..

مددت يدى بحثًا عن عصا أو شىء يصلح لاستكشاف الحفرة ..

أخيرًا وجدت غصنًا بلا أوراق ، فمددت يدى أعابث الرمال الرطبة وفى النهاية اصطدمت بجسد صلب ..

كان العرق يغمر وجهى ولحيتى .. والشمس تجعل الرؤية مستحيلة ..

لكنى تمكنت من توسيع الحفرة .. حتى وجدت حقيبة سوداء فى حجم هذا الكتيب .. لكنها صلبة مدعمة الجوانب أنيقة جدًا برغم الغبار الذى يكسوها ..

من جيبى أخرجت قفازين لبستهما .. ثم عالجت الحقيبة حتى نجحت فى إخراجها بالكامل وركلتها بقدمى مرتين .. وتراجعت ، حتى تأكدت من أن شيئًا لا يتعلق بها .. وعدت أدنو منها فى حذر ..

سآخذها معى .. لكنى لـن أفتحهـا الآن .. فاللّـه وحده يعلم أية مفاجآت سارة قد تكون فيها ..

وضعتها فى كيس بلاستيكى ، ودسستها فى جيبى ، ثم رحت أهبط التل مهرولاً ..



١١ـ مشكلة الإياب ..

كان هذا كافيًا جدًا ..

إن ما أريده فى هذه الحقيبة السوداء .. ولا أحسب هناك مشاكل فى فحصها فحصًا دقيقًا .. من المؤكد أنها سرقت من معمل وهذا المعمل هو الذى قام بتطوير فيروس (كافا موجورو) أو تحويره عن فيروس (إيبولا) الفتاك ..

ولحقت بـ (بودجرا) فطلبت منه أن يتهيأ للرحيل .. لكننا وجدنا أن القرية مغلقة تمامًا .. وأفهمنا واحد ممن يرتدون ثياب رواد الفضاء أن الدخول إلى القرية عسير .. لكن مغادرتها مستحيلة ..

نسيت أن أقول إنه كان يحمل بندقية آلية جميلة الشكل كالتى يحملها (سلفستر ستالونى) فى الأفلام التى كنا نراها فى فيديو المقهى عندما كنت فى مصر ..

أحسست بالحيرة .. هل المطلوب منا أن نبقى ها هنا حتى نموت ؟

- « لكننى طبيب فى وحدة (سافارى) .. ومن حقى أن ...... »

قال فى غلظة :

- « لا دور لـ (سافارى) هنا .. هذه القرية تحت الحكم العسكرى لقوات الجيش .. وتحت إشراف الـ CDC العلمى .. أى أنكما دخيلان ها هنا »

(كوبرا) ! هذا هو اسم الفيلم الذى رأيت فيه بندقية كهذه .. لكن هذا ليس مهماً الآن .. المهم هو الخروج بكنزى الصغير ..

لكنهم كانوا صارمين .. طلبت منهم استعمال جهاز اللاسلكى أو إجراء مكالمة هاتفية ، لكن لم يكن لديهم وقت لهذا الهراء ..

★ ★ ★

أمام أحد الأكواخ المتداعية ، جلست مع (بودجرا) .. كان يتحدث فى مائة موضوع فى نفس اللحظة ، ويلوك بعض الجذور التى يهوون مضغها ها هنا على سبيل المزاج .

كنت شارد الذهن أفكر فى سبيل الخلاص من هذه الورطة ..

الحقيبة أو العلبة السوداء فى جيبى ، وأنا لست (كوبرا) ذاته أو (كوماندو) كى أخرج بندقيتى وأخطف سيارة ، وأقتحم الحصار ..

رحت أتأمل ما يفعله رواد الفضاء هؤلاء ..

كانوا يتنقلون ما بين كوخ وآخر .. وبعضهم كان يرفع الأحجار المتناثرة هنا وهناك .. وكان معظم الأكواخ خاليًا بعد ما مات ساكنوه ؛ لهذا كانوا يقلبون ما تبقى من متاع حقير خارج الكوخ .. ويركلونه بأحذيتهم أو بفوهات بنادقهم لمعرفة ما به ..

ليس هذا مسلك أطباء حتى ولو كانوا مسلَحين ...

هو أقرب إلى مسلك من يبحث عن شىء معين ..

كان الكوخ الذى نجلس أمامه خاليًا .. لهذا تأكدت من أن أحدًا لا ينظر إلىَ ثم زحفت على ركبتى لأدخله ..

سألنى (بودجرا) :

ـ « هل تبغى تلبيةَ نداء الطبيعة ؟

ـ « شىء كهذا .. »

ـ « لكن القرية كلها أمامك .. »

ـ « إننى أعانى من (المثانة الخجول) .. لا بد من أن أخلو بنفسى .. »

وداخل الكوخ الذى بدأ يصير مظلمًا - فالشمس تدنو من أفقها الغربى - مددت يدًا لهفى إلى الحقيبة السوداء ..

لا جدوى من ارتداء القفازات لأنه لو كان هناك فيروس آخر بها ، فاحتمال انتقاله بالتنفس لا بأس به ..

إن الفضول قتل القط .. وأنا قط كبير ..

★ ★ ★

لم تكن مغلقة .. هذا طبيعى إذا كان (جومبا) قد استطاع فتحها ..

كانت مبطنة بالإسفنج الرغوى .. ووجدت شعارًا صغيرًا لم أدر كنهه VRU ؟ مطبوعًا على البطانة بالداخل ...

VRU ؟ طبعًا لا بد من وجود كلمة (فيروسات) Virology و (بحث) أى Research .. ولعل الـ U الأخيرة ترمز إلى Unit أى (وحدة) .. هذه الحقيبة آتية من وحدة أبحاث فيروسات فى مكان ما .. وهذا يعنى أن ظنى فى موضعه غالبًا ..

وكان هناك انبعاجان فى الإسفنج يسمحان بوضع أنبوبتى اختبار بحجم إصبعك السبابة ، بافتراض أنك تعانى داء العملقة ..

كانت إحدى الأنبوبتين فى مكانها ، والأخرى انتزعها أحدهم .. لا بد أنها تلك التى بدأت هذه المأساة ..

وتأملت الأنبوبة فى فضول .. إنها من الرصاص وقد أغلقت بإحكام .. لا بد أن الزجاج بالداخل .. وقد كتب عليها Strain # 056A ..

دسستها فى جيبى جوار قلمى .. ثم رحت أنقب فى الحقيبة عن المزيد من المعلومات ..

هذه وريقة صغيرة مطوية تم وضعها بعناية تحت طبقات الإسفنج .. مددت يدى وفتحتها .. صبرًا إن كشافى معى ..

دسست الكشاف الرفيع بين أسنانى ، وصوبته نحو الورقة .. وعلى الضوء الخافت المتراقص قرأت بالفرنسية هذه السطور :

« إنهم فى إثرى وأعتقد أنهم فى أغلب الاحتمالات سيجدوننى ويقومون بالتخلص منى .. أنا د. (ميشيل جوبير) الذى عمل لفترة فى معهد (باستور) ثم انتقل للعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية ..

« لقد عملت فى أحد المعامل التى يشرف عليها

الجيش لتطوير سلاح بيولوجى من فيروس (إيبولا) .. وقد قمت بسرقة سلالتى الفيروس اللتين وصلنا إليهما ، وجئت إلى إفريقيا بغرض بيعهما لمن يُدعى (ماكس فرايدمان) .. وهو اسم مستعار لأحدى همزات الوصل ما بين المافيا والنازيين الجدد ..

« لقد أغرانى المال والشيك الذى سيودع باسمى فى أحد بنوك (سويسرا) ، ويحتوى على ستة أرقام أو أكثر .. لكنى قد دنوت من النار أكثر من اللازم حتى أوشكت على الاحتراق بها ..

« إن الجميع فى إثرى منذ وصلت إلى (ياوندى) .. ولا أدرى إن كانوا من المخابرات الأمريكية أم النازيين الجدد الذين يحاولون الحصول على الفيروس مجانًا ..

« تعرضت لثلاث محاولات قتل .. وفى الغالب لن أنجو من الرابعة .. و(فرايدمان) غير موجود ولا أدرى مكانه ..

« لهذا كتبت هذه الرسالة ودفنتها مع الحقيبة ها هنا .. فإن متّ آمل أن يجدها أحدهم ويرسلها إلى الصحافة ، ليعرف الجميع أية مؤامرة شيطانية تدور فى معامل VRU فى (بنسلفانيا) ..

« لكنى ـ بطبيعة المقامر ـ ما زلت آمل فى أن أعود لأسترد هذه الحقيبة يومًا ما ، وأبيعها لمن يملك ثمنها .. »

انتهت الرسالة المكتوبة بخط متعجل ردىء .

إنها غريزة المنتحرين الشهيرة : كل منتحر يحاول جاهدًا أن يبرّر نفسه للعالم .. برغم أنه فارقه باختياره إلى عالم لا يحتاج إلى هذه المبررات ..

هو ذا الأخ (جوبير) يعرف أنه ضائع تمامًا .. لكنه لا يقاوم شهوة أن يورّط قاتليه بأى طريقة ..

والآن أعرف حقيقة أخرى .. لم يسرق (جومبا) الحقيبة ويدفنها ها هنا .. بل هو ـ فى الغالب ـ وجدها مصادفة .. نعجة من نعجاته راحت تدق بحافرها فى هذا الموضع ، أو انتزعت جذور نبتة مَا .. عندها دنا (جومبا) ووجد الصندوق ـ الحقيبة ـ العلبة .. فتحها ليرى ما بها .. وجد أنبوب الاختبار الأول .. كسره .. ثم عاد إلى كوخه ليمرض ويموت ..

أما عن (جوبير) فالله وحده يعرف مصيره .. من السهل أن تموت فى إفريقيا السوداء فلا يعرف أحد أنك متَ ولا يجد جثتك أحد ..

وارتجفت وأنا أنظر إلى الأنبوب الرصاصى ..

هذا الأنبوب كان قادرًا على قتل الألوف ، وإحداث كارثة فى شمال البلاد .. فماذا عن أنبوبين ؟ من النادر أن يرى المرء الوباء وقد تمت تعبئته فى أنبوب ..

★ ★ ★

خرجت من الكوخ ، فجلست جوار (بودجرا) .. الأنبوب فى جيب صدر قميصى ، ومعه الرسالة المقتضبة ..

والليل يدنو من الأفق معلنًا ملكوت الظلام ..

سألنى (بودجرا) وهو يبصق بعض الجذور :

ـ « تفو ! يبدو أنك تعانى إمساكًا مزمنًا يا دكتور .. »

ـ « أحب أن أعطى كل شىء وقته .. »

ورحت أتأمل المشهد أمامى ..

كانت الكشافات العملاقة مضاءة فى كل صوب لتحيل الليل نهارًا ..

وطائرة هليوكوبتر تجوّل فى أرجاء السماء باحثة بكشافها عن شىء ما .. على حين راح روّاد الفضاء

يدخلون ـ من حين لآخر ـ شاحنة عملاقة هى واحدة من ثلاث شاحنات ، يبدو أنها مخصصة للمبيت ولاستعمالها كمقصف .. ويمكنهم ـ حتمًا ـ بالداخل أن ينزعوا ثيابهم الثقيلة هذه وينعموا بقسط من الراحة ..

ورأيت أحدهم يدنو منا حاملاً كيسًا من البلاستيك ، ألقاه أمامنا وقال من وراء خوذته الثقيلة :

ـ « هذا عشاؤكما .. »

حركة (إتيكيت) لا باس بها .. إنهم لن يتركونا نقضى جوعًا على كل حال .. بطاطس محمرة و(هامبرجر) ردىء جدًّا .. وعلبتا مياه غازية ..

رحنا نأكل كالأبقار .. ثم شعرت بجفاف فى حلقى فناديت هذا الطبيب / الجندى الذى جلب لنا الطعام قائلاً ما معناه :

ـ « حبة مية وحياة والدك .. »

هزّ رأسه فى فتور .. ودخل إلى إحدى الشاحنات .. ثم عاد لى حاملاً كوبين ورقيين وضعهما على الأرض وابتعد ..

جرعت الماء وأنا ألاحظ فى استمتاع أنه لم يجرؤ على لمسنا ..

لا بد أن هذه الشاحنات تحوى حاجتهم من الماء النقى .. ولا بد أنهم يرتدون طاقمًا آخر من الثياب داخل الشاحنة كى يتمكنوا من لمس صنبور الماء وخلافه ..

رائحة الحريق والدخان ..

إنهم يحرقون مزيدًا من الجثث فى الحفرة إياها ..

وفى عقلى أكثر من خاطرة وشك و ...

فى اللحظة التالية رأيت مشهدًا لا يُصدق ..

★ ★ ★

رأيت ثلاثة من أهالى القرية يقفون فى ركن قصى ، وقد حنوا رءوسهم فى استسلام ..

ورأيت أحد رواد الفضاء هؤلاء يرفع بندقيته الآلية .. ثم خمس أو ست طلقات .. بعدها سقط الرجال الثلاثة وسط الرمال ، بينما الدخان يفعم الجو .. ورائحة البارود تتصارع مع رائحة اللحم المحترق فى الحفرة إياها ..



رأيت ثلاثة من أهالى القرية يقفون فى ركن قصى ، وقد حنو رءوسهم فى استسلام . .

صحت فى هلع وأنا أقف على قدمىّ :

ـ « (بودرجا) ! إنهم يعدمونهم ! »

فتح فاه باحثًا عن كلمات فلم يجد .. عدت أصيح :

ـ « ليس هذا حجرًا صحيًا .. وليس هؤلاء من الـ CDC .. إنهم مجرد قراصنة .. »

ـ « ربما كانت لهم الصلاحية كى ... »

ـ « صلاحية القتل ؟ إن هذا الحماس فى الطب الوقائى غير معتاد وغير مطلوب .. »

كانت ساقاى ترتجفان .. فأنا رأيت كثيرين يموتون .. لكنى لم أر أحدًا يقتل قبل اليوم .. ولم أصدق القوة الغاشمة التى تحركها إرادة غاشمة كهذه .. كيف يجرؤ إنسان على إنهاء حياة إنسان آخر بهذه البساطة ؟

إذن هم لا يحتلون القرية من أجل حمايتها ..

إنهم يبحثون عن ذات الشىء الذى هو فى جيبى الآن ..

هل هم من المافيا أو النازيين الجدد ؟ بالطبع لا .. فلا يوجد منظمة دولية إرهابية لها القدرة على

اختراق هذه الحدود .. بل وتمارس قرصنتها تحت حماية الجيش الكاميرونى ..

إن الجيش الكاميرونى لا يعرف شيئًا عما يحدث بالداخل .. إنه يكتفى بالحصار .. ومحرقة الجثث تستوعب كل شىء : من مات بالوباء ومن مات بالرصاص .. لا فارق هنالك وسط الرماد الساخن ..

توجد جهة واحدة ودولة واحدة تملك هذه الإمكانات العملاقة ، وتستطيع ترتيب الأمر مع حكومة (الكاميرون) ، وترسل فريقًا من السفاحين يحملون أوراقًا مزوّرة تقول إنهم علماء من CDC أو منظمة الصحة العالمية ..

دولة واحدة ..

دولة يهمها استرداد الفيروس بعد ما جرّبت قوته على الطبيعة وبعد ما استطاعت تحديد موضع هذه القرية بدقة متناهية .

دولة واحدة !

★ ★ ★

وكان الجميع منهمكين فى مراقبة عملية الإعدام باستمتاع ..

نظرت بطرف عينى إلى الشاحنة التى جلب لنا الرجل الماء منها ..

وابتلعت ريقى ..

خطرت لى فكرة لا بأس بها ..

★ ★ ★

١٢ـ الإعـــــدام ..

إن الرفقَ فى محاربةَ العقارب لخطأ قاتل ..

★ ★ ★

كان الباب مفتوحًا فى إهمال .. لا بد أن الأهالى الباقين يهابون الدنو من هذا المكان ..

نظرت حولى فلم أجد أحدًا ينظر إلىَ ..

هرعت جريًا إلى الشاحنة فدخلتها وقلبى يتواثب كالطبل ..

ودرت بعينى فى المكان الخالى ..

كانت هناك ثياب فضاء معلقة على المشاجب .. ومقاعد متناثرة ..

وجهاز اتصال معقد ليس أمامه أحد ..

وكان هناك خزان ماء مزود بأربعة صنابير ، كُتب عليه (ماء شرب) .. كيف أستطيع فتحه ؟ يوجد صمام فى أسفله .. لكنه صمام معقد جدًا لن أفهم كيفية فتحه إلا بعد سبعة وأربعين عامًا ..

صوت أشخاص يتحدثون .

(رباه ! لو وجدونى هنا لأعدمونى فورًا !)

الخيمة .. هناك من يدنو ....

رحت أتحسس الخزان فى لهفة .. وأخيرًا تلمست أصابعى كوة فى جزئه العلوى .. كوة تغطيها صامولة بلاستيكية كبيرة ..

حاولت فتح الصامولة ولكنها .

(لماذا لم أترك أظفارى تنمو ؟ إنها تفيد فى هذه الأمور)

صلبة جدًا هن ! هن !

أخيرًا استجابت لى ..

وأدركت أن الخزان مفتوح الآن .. مفتوح كقلب صديق ..

★ ★ ★

رفعت جذعى إلى أعلى ، حتى صار بوسعى أن أدخل كتفى فى الكوّة .. بالواقع أدخلت كتفى وذراعى الأيمن ..

إن الفكرة التى لم أجد خيرًا منها هى محاولة تفريغ هذا الخزان ..

فماذا ستكون النتيجة ؟

ستحدث فوضى لا بأس بها .. فهؤلاء الغزاة لن يشربوا من ماء القرية الملوث أبدًا .. وعندها سيطلبون المدد من الخارج .. وستتحرك إحدى الشاحنات مغادرة القرية ، وعندها يمكن أن أختبئ فيها أنا و (بودرجا) ..

خطة واهية جدًا لكنى لا أجد خيرًا منها ..

وهكذا رحت أبحث عن طريقة لفتح الخزان من الداخل ..

راحت أناملى المغمورة فى الماء البارد تفتش عن شىء ما ، لكن لا شىء .. فقط الجدار الصلب للخزان ..

وهنا سمعت صوت شىء يرتطم بالقاع ..

ما هذا ؟ هل هو ساعتى ؟!

يا للهول ! وسرعان ما أخرجت ذراعى المبتلة بالماء .. وتحسست جيب قميصى .. هذا ما توقعته ..

لقد تزحزح الأنبوب وسقط فى مياه الشرب !

إننى لأحمق .. من يدرى ؟ ربما كان الأنبوب محكم الغلق ..

وربما لن يحدث تسرب . لكن من يضمن هذا ؟

لم يعد هناك حلّ سوى التنازل عن كبريائى ،

وإبـلاغ هـؤلاء السـادة الظرفـاء أن أنبوبًـا ملينـا بالفيروسات موجود فى ماء شربهم .. وهذا سيستدعى بالطبع أن يعرفوا كل مـا وصلت إليـه .. لا أدرى حقًا ما يلى ذلك .. لكـن المـاء الفيروسـى ليس ممـا أحـب تقديمه للناس حتى الأوغاد منهم ..

واستدرت كى أخرج أعلن لهم الحقيقة ..

كان هذا حين تلقيت الضربـة العنيفـة علـى مؤخـرة رأسى ..

بدأ الظلام يسـود ، لكنى ـ فى ذلك الوقت الوجيز ـ عرفت أنهم اكتشفونى فى شاحنتهم ..

وأن أحدهـم ضربنـى بـ (دبشـك) البندقيـة علـى رأسى ..

لم يتركوا لى الفرصة كى أفسر لهم .. أن ....

★ ★ ★

ظلام دامس .. ثم لا شىء ....

★ ★ ★

صحوت عند الظهيرة وكنت على الأرض فى العراء ..

عجبًا ! كيف نمت كل هذا الوقت ؟

لا بـد أن الأمـر بـدأ كإغمـاء ثم إننـى واصلت نومى

السعيد بعدها .. ومن الواضح أنهم ترددوا بشأن قتلى ..

لم أجد (بودرجا) جوارى ، فنهضت مذعورًا أبحث عنه ..

وكان ما رأيت عجبًا ..

عشرات من رواد الفضاء يرقدون على الأرض وسط الرمال ..

بعضهم يتلوى ألمًا ، وبعضهم ينزف الدم من منخريه وعينيه ، فكأنما المشهد لوحة سريالية مجنونة امتلأت ببقع حمراء على أرضية صفراء زاهية ..

ووجدت أن القرويين و (بودرجا) يحاولون إنقاذ هؤلاء القوم ..

كانت الخوذات منزوعة .. والثياب ممزقة أو مهترئة .. وجوار الشاحنة وجدت أحدهم جالسًا على الرمال وأمامه جهاز إرسال صغير .. وكان يردد فى مكبر الصوت بصوت مبحوح :

- « (ماى - داى) .. (ماى - داى) .. أكرر .. الوباء قد ... »

ثم غلبته نوبة سعال .. وسرعان ما تطاير الدم من فمه وسقط رأسه ليرتطم بالجهاز ..

يبدو أنهم شربوا كثيرًا من أكواب الماء ليلًا .. ويبدو أن أنبوب الاختبار لم يكن محكمًا .. ويبدو أن السلالة 056A # كانت أكثر شراسة من السلالة المماثلة لها ..

لقد حقق الوباء رقمًا قياسيًّا فى سرعته ..

هرعت إلى (بودرجا) الذى كان يسقى جرعة ماء لأحد المرضى من روّاد الفضاء بعد ما نزع خوذته وأرقده فى الظلّ ..

صحت فى هلع :

ـ « من أين جئت بهذا الماء ؟ »

ـ « من البئر .. لماذا تسأل ؟ »

لم أردّ .. هرعت إلى الشاحنة المفتوحة فاخترت بذلتين من البذلات المعزولة .. ارتديت إحداها ووضعت خوذتها على رأسى ، ثم خرجت بالأخرى إلى (بودرجا) وأمرته أن يحذو حذوى ..

ـ « ولكن ... »

ـ « لا لكن .. إننا لفى خطر داهم .. »

ـ « والمناعة التى نلناها ؟ »

ـ « هذا الفيروس أكثر شراسة مما تتصور .. »

وارتدى بذلته .. فركضنا إلى إحدى سيارات الجيب الواقفة ، فركبناها .. واندفع (بودرجا) يقودها إلى طريق الخروج من القرية ..

وكانت ثيابنا بمثابة بطاقة مرورنا وسط المدرعات والعربات التى تحاصر القرية ..

فلم يحاول أحد منعنا من الخروج ..

وبعد دقائق كنا فى طريقنا إلى (سافارى) ..

★ ★ ★

أعاد البروفسور (بارتليه) قراءة الخطاب الذى كتبه مواطنه قبل أن يموت .. وهزّ رأسه غير مصدق ..

ثم عاد يسألنى :

ـ « ولم تجد أثرًا لهذا الأنبوب ؟ »

ـ « لا شىء .. لقد اختفى من على وجه البسيطة .. »

ـ « والوباء الذى فتك بأفراد الـ CDC فى القرية ؟ »

ـ « لا بد أن تلوثًا قد حدث فى طعامهم أو شرابهم .. »

- « يقـول (بودجـرا) أنكمـا تناولتمـا وجبـة مـن طعامهم .. »

قلت فى نفاد صبر :

- « لا يمكن أن تلومنى على أننى لم أصب بالوبـاء ولم أمت .. لقد حاولت ما بوسعى لكنى فشلت .. »

نظر لىِ فى حيرة .. واهتز الشحم فى وجهه البدين ، والتمعت عيناه الضيقتان بنظرة مـن يريـد قـول شـىء لكنه لا يدرى كيف يبدأ ..

أخيرًا قال لى :

- « لقد اتصلت بالـ CDC أرسلت لهم (فاكس) .. والنتيجة غير عادية .. لا يوجد واحد من رجالهم فـى إقليم (أداماوا) بأسره ..

إن من رأيتهم ليسوا من الـ CDC .. »

- « غريب ! إذن هم من الصحة العالمية .. »

- « لا هذا ولا ذاك .. »

- « يا للهول ! إنك تثير رعبى .. إذن من كانوا ؟ »

- « لا أدرى .. لا بد أنهم من جهة يهمها الحصول على الفيروس .. »

- « وما أهمية ذلك ما دام كل واحد فى القرية يحمل الفيروس ؟ »

ابتسم فى سخرية .. وقال :

- « الفيروس الخام المركز .. إنك لن تحتفظ بألف إفريقى فى خزانتك لاستخدامهم كسلاح بيولوجى .. لكنك تستطيع الاحتفاظ بأنبوب اختبار .. »

وهزَ رأسه كمن يتذكر :

- « (ميشيل جوبير) .. كان عبقريًا .. وقد عرفته لفترة لا بأس بها فى معهد (باستور) .. لكنه كان نفعيًا وصوليًا .. وكانت له عبارته الشهيرة التى كنا نأخذها على سبيل المزاح :

لو خيرونى بين دمل فى أنفى وبين أن تزول (نيكاراجوا) من على الخارطة لما ترددت لحظة .. إن دمامل الأنف مؤلمة للغاية ! »

فكرت فى العبارة بضع دقائق ، وبدت لى معقولة جدًا .. فعلى مستوى المعانى المجردة لا تبدو (نيكاراجوا) بهذه الأهمية .. مجرد اسم بلد لا نعرف شيئًا عن ثقافته ولا موضعه على الخارطة .. لكن دمامل الأنف أشياء حقيقية واقعة أليمة جدًا ...

قال (بارتليه) مواصلاً تفكيره الشارد :

ـ « لقد تلاعبوا بجينات الـ (إيبولا) ليجعلوا منه كابوسًا لا قبل لنا به .. وقد حان الوقت لا تخاذ سياسة (الكىّ) .. »

ـ « الكىّ ؟ »

ـ « نعم .. يجب إزالة القرى المنكوبة من على الخارطة .. »

ـ « والأهالى ؟ »

ـ « سيتم وضعهم فى معزل كبير واحد تحت رقابة الجيش ، وإشراف طبى حقيقى من وحدة (سافارى) .. »

ـ « حتى يموت من يموت ويُشفى من يُشفى .. »

ـ « لن يموت الجميع .. هناك (الإنترفيرون) و(الريبافيرين) .. وهناك مائة ناج يمكن لمصلهم أن ينقذ خمسمائة غيرهم .. »

★ ★ ★

وبناء على الاتفاق بين الجهات الثلاث والحكومة ، تم ترحيل المرضى وأقربائهم إلى قرية على بعد ثلاثة أميال من (ماروا) ..

ثم حلقت عشر طائرات قاذفة تحمل علامات السلاح الجوى الكاميرونى ، لتسقط عدة أطنان من القنابل الحارقة على القرى التى تم إخلاؤها ..

واستحال الليل نهارًا وتصاعد الدخان إلى عنان السماء ..

وعندما جاءت الظهيرة - بعد غارات استمرت طيلة الليل - جاءت لتجد الرماد الساخن فى كل مكان ..

وقد محيت ستَ قرى من الوجود ....

أما بالنسبة لوحدة (سافارى) فقد كان العمل فى بدايته ..

تحركت ثلاث شاحنات إلى (ماروا) تحمل العتاد والأطباء وثياب روّاد الفضاء إياها ، وكنت أنا فى إحداها مع (برنادت) .

وقضينا شهرًا من العمل المتواصل فى المعسكر العشوائى الذى تم اختياره لعزل المرضى ..

تبًا لها من ليال تفوح برياح الموت والمرض !

لكننا - بعد شهر - أدركنا أن معركتنا مع المرض قد انتهت ، وأن الفيروس قد قرر أن يحمل عصاه ويرحل ..

لقد مات كثيرون ، ومن عاش أصابه التهاب مخى نحمد اللّه أنه لم يصبنا به ..

وفى تلك الليلة همست لـ (برنادت) وأنا أرمق الشمس الغاربة :

ـ « الإنسان هو أكبر أحمق عرفه الوجود .. حتى النعامة لم يبلغ حمقها درجة أن تضيع الوقت باحثة عن طريقة لقتل النعام .. »

قالت وهى تمدد ساقيها على الأرض بعد عناء اليوم :

ـ « إن التسلح غريزة لدى الأحياء جميعًا .. »

ـ « لكن كل هذا الدمار .. هذا الشقاء .. هذا البؤس ... »

وصمتّ .. إذ لم أجد الألفاظ التى تعبّر عما أريد قوله ...

★ ★ ★

وفى مكان ما من (بنسلفانيا) كان البروفسور (ماكميلان) جالسًا مع جنرال (فورسايت) الذى لا يرتدى ثيابًا عسكرية ..

يقول جنرال (فورسايت) :

- « نحن واثقون من أن (جوبير) قد حمل معه عينتين .. »

ويقول البروفسور :

- « بل ثلاثًا .. أنا واثق من هذا .. كانت لدينا فى الثلاجة ثلاث عينات هى 056A # ، 056B # ، 056C # . »

- وما هو أخطرها ؟ »

- « كلها خطرة .. لكن السلالة 56C # هى أسوأ ما عرفناه .. إن وباء (الكاميرون) الذى سببه النوعان الأولان لهو نوع من الزكام إذا قورن بالوباء الثالث .. »

ويقول الجنرال ..

- « كل مصادرنا تؤكد أن (جوبير) لم يحمل معه إلى إفريقيا إلا عينتين ، وقد تمكنا من انتزاع هذا منه قبل قتله .. إن من يحترقون بالكهرباء لا يجدون وقتًا للكذب .. »

يقول البروفسور فى عصبية :

- « وأنا أقول إنه كذب عليكم .. ثمة أنبوب ثالث .. »

ـ « إن كان الأمر كذلك فمن أخذه ؟ »

★ ★ ★

حقًا من أخذه ؟

من هو ذلك الرجـل المرتبك ذو المعطـف الأسـود ، الواقـف فـى طـابور الجمـرك فـى مطـار (هيـثرو) ؟

وماذا ينوى عمله ؟

ما سر ذلك الجسم الأسطوانى الرصاصى فى جيبه ؟

كنا نعتزم الإجابة .. لكن الحادث ـ للأسف ـ بعيد عن نطاق عملنا هنا فى (سافارى) ..

د. علاء عبد العظيم

(أنجاونديرى)

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيًا ويظل طبيبًا

روايات مصرية للجيب

٢١٨٩

الوباء



د. أحمد خالد توفيق

فى قلب الأحراش الإفريقية تحرك فى بطء .. ترعرع .. ثم بدأ يحبو فيمشى فيهرول فيرمح فى سرعة جنونية ، مبعثرًا الدماء والموت فى كل صوب .. تاركًا وراءه خطًا من القبور والجثث المحترقة ..

كان يتحرك بسرعة .. وكان على وحدة (سافارى) أن تتحرك بسرعة أكبر قبل أن ينتصر الوباء ..

العدد القادم :
خاطفو الأجساد

الثمن فى مصر ١٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع